

رسالة اليونسكو
نافذة على العالم
اليونسكو
العدد ٢٢٤/٢٢٥
مارس – أبريل ١٩٨٠
الثمن ٢٠ قرشاً
انتصار في النوبة
إنقاذ آثار عمرها أربعة آلاف عام



كنوز
الفن العالمى
١٥٠
السودان

جواد النوبة

هذا الجواد الجموح صورة حائطية من القرن الثانى عشر فى كاتدرائية فرس الكائنة فى إقليم النوبة السودانى بالقرب من الحدود المصرية . وقد قامت البعثة الاثرية البولندية فى حملة النوبة بالتنقيب فى بلدة فرس التى لعبت دورًا عظيمًا فى تاريخ المسيحية فى النوبة السفلى وكانت ضمن المواقع الأولى فى النوبة السودانية التى غمرتها مياه السد العالى بأسوان . وقد تمكن الفنان من إبراز حركة الجواد وهو يقفز . وتدل النقطتان تحت الحافر الأيمن الأمامى على أن هذه الصورة تمثل حلية يمكن تعليقها بالملابس . وقد تسلمت كل دولة اشتركت فى الحملة من كل من مصر والسودان بعضًا من الكنوز التى اكتشفتها بعثتها الأثرية . وهذه الصورة محفوظة فى المتحف البولندى الأهلى بوارسو

رسالة اليونسكو

تصدر شهريا عن :
هيئة اليونسكو
ميدان فونتنوا - باريس - ٧

تصدرها اليونسكو باللغات
الفرنسية والإنجليزية والأسبانية
وتصدرها شعب قومية
بسبع عشرة لغة أخرى

رئيس التحرير
جان جودان
وتوجه الى سيادته جميع
الرسائل فى باريس

الطبعة العربية لرسالة اليونسكو
١ شارع طلعت حرب - القاهرة
تليفون : ٧٤٢٥٠٢
٧٤٠١٧٥

فى هذا العدد

يرجع الفضل الأكبر فى إعداد هذا العدد الخاص إلى المعاونة البالغة القيمة التى قدمها لنا الأستاذ عبد المنعم الصاوى رئيس تحرير الطبعة العربية من «رسالة اليونسكو». وقد كان الأستاذ الصاوى من ألمع هذا النفر الكريم الذين كان لهم فضل المبادرة بهذا المشروع ، وتعهده بالتنظيم ، سواء حين كان سيادته وكيلاً لوزارة الثقافة المصرية أو حين كان وزيرًا لها . وانا لنقدم شكرنا كذلك إلى العالم الأثرى الذائع الصيت لويس . أ . كريستوف الذى قام بصفته المستشار الأول لليونسكو فى مجال الآثار - بدور رئيسى فى هذه الحملة ، وتفضل بتزويدنا بمعارفه الواسعة وخبرته العملية فى حفريات النوبة من أجل إصدار هذا العدد .

صورة الغلاف

فى العاشر من مارس ١٩٨٠ بلغت الحملة الدولية التى نظمتها اليونسكو طول عشرين سنة لانقاذ كنوز النوبة المهددة بالغرق على أثر بناء السد العالى بأسوان ذروتها . وإبرازًا لأهمية هذا الحدث خالفت «رسالة اليونسكو» عادتها فأصدرت عددها المزدوج فى مارس وأبريل هذا العام وخصصته بالكامل لهذا الحدث الذى لا سابقة له والذى هو دليل على التعاون الدولى . أما عددنا المزدوج المعتاد لشهرى أكتوبر - نوفمبر فسوف يستبدل به عددان مفردان . وصورة الغلاف هى صورة عمود فى جوسق نقتانيو ، وهو جزء من مجموعة فيلة الأثرى كما يتجلى اليوم فى موقعه الجديد على جزيرة أجيلكيه . والرأس المنحوت هو رأس الآلهة المصرية حتحور . وفى غضون حملة النوبة تضافر العمال والمهندسون والمعماريون والأثريون وبذلوا جهودهم لنقل ٢٢ معبدًا . وهذا مشروع إنقاذ سوف يظل من أعظم المآثر التقنية فى هذا القرن .

تراث عالمي واحد

بقلم : أحمد مختار امبو
مدير عام اليونسكو

يبدأ تاريخ الإنسان مع بقاء ذكرياته بتخليد تطلعاته وأمانيه ومشاكله وأحداثه ، وتسجيلها سواء كانت منقوشة على حجر أو منظمة فى نغمة موسيقية . هكذا يسلم الإنسان مشعل رسالته من جيل إلى جيل . وهكذا يتغلب على الفناء ويحافظ على استمراريته عبر الزمن . وهكذا تستمد الشعوب دوامها رغم تقلبات الدهر وتحافظ على كيانها الجماعى .

ولقد حظيت آثار الأقدمين ـ روحية كانت أو مادية ، فنية أو أدبية ـ بعناية الأحفاد وتقديرهم منذ الماضى السحيق . ولكن نلاحظ فى أيامنا هذه اهتمام الشعوب الأخرى بالآثار رغم اختلاف مصادرها .

ولقد كان لعصرنا فضل السبق فى هذا المضمار ، باعتبار آثار الشعوب تراثاً للبشرية جمعاء .

ولعل الحملة العالمية لإنقاذ معبد فيلة خير شاهد على مانقول ، وأوضح دليل على إدراك الشعوب لهذه الحقيقة . ولعل الجهود الجبارة التى تبذل لإنقاذ معبد فيلة تصل إلى الهدف المنشود ، وهو تضافر القوى للحفاظ على ماتركه أسلافنا ، وتضافرها أيضا لبناء مستقبل السلام والرخاء للبشرية كلها بروح الأخوة الواعية .

(الصورة ـ محمد فتحى إبراهيم صبرى ـ مركز تسجيل الآثار ـ القاهرة)

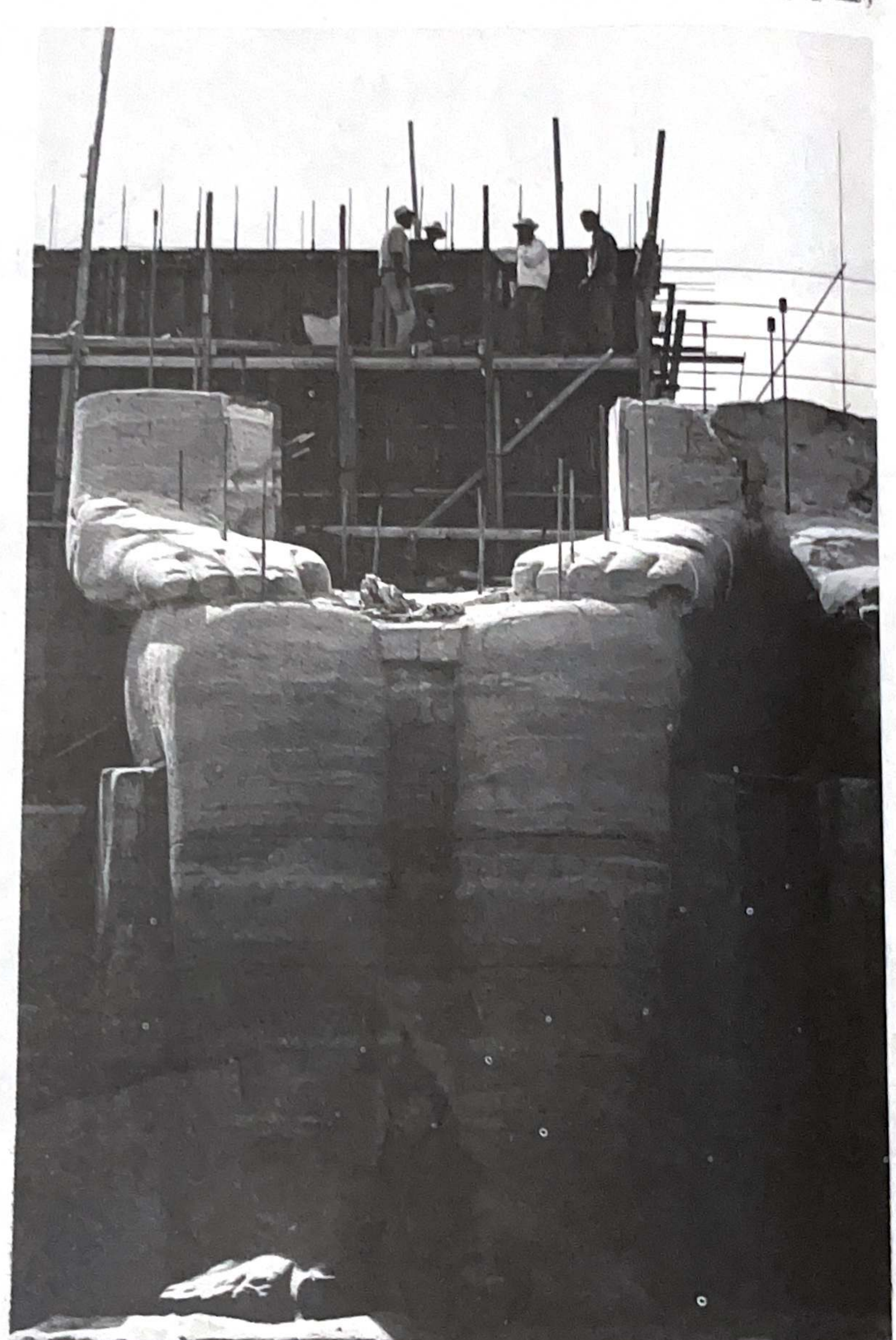


تحت رعاية اليونسكو
أعظم عملية إنقاذ أثرى فى التاريخ (١٩٦٠ ـ ١٩٨٠)

نصر تحقق فى بلاد النوبة : مصر

بقلم : شحاته آدم محمد

تمثال رمسيس ، مفكك الأوصال ، والعمال يشتغلون فى إعادة بناء معبد أبى سمبل الكبير (انظر صفحتى ١٠ ، ١١ والصفحتين الوسطيين الملونتين)



(تصوير : جورج جيرستر - رافو ، باريس)

ورفعت الباخرة مرساها ، وانسابت فوق مياه النيل ، لتبدأ رحلتها عبر بلاد النوبة ، متجهة جنوبا ، وضوء الفجر قد أخذ يقترب ، والشمس من ورائه تستعد للظهور ، لتطلق أشعتها على هذه البقعة من وادى النيل ، والصحراء مترامية عن يمين ويسار ، وعلى حافتى النهر الذى أعطى الحياة لمصر والسودان قامت منازل النوبيين ، تعلو وتهبط مع الجبال ، وقد زخرفت جدرانها وواجهاتها ، وارتفعت قبابها من وراء الأفنية ، وفيها يعيش النوبيون ، ببشرتهم الداكنة الناعمة ، وعيونهم السود البراقة ، وجلابيبهم البيض الناصعة . ولم تلبث الشمس أن برزت من وراء الأفق الشرقى ، ثم أخذت تعلو وترتفع ، والباخرة تسير هادئة وسط مياه زرقاء ، والمعابد تسرى واحدا إثر واحد ، معابد كانت يوما دورا لعبادة آلهة مصر والنوبة ، كان يغشاها الكهنة الذين يرتلون الصلوات ، ومقابر وجبانات ومدن وبقايا كنائس ومساجد ، كشف عنها ، أو لاتزال مطمورة تحت الثرى ، وعلى صفحات الصخور على الجانبين تبدو النقوش التى تركها الذين عاشوا فى هذه البقاع ، أو مروا بها ، عبر العصور .

كانت الحياة على جانبى النهر قد تناولها التغيير خلال القرن العشرين بعد بناء خزان أسوان (١٨٩٨ ـ ١٩٠٢) ، وبعد تعلية هذا الخزان مرتين (١٩٠٧ ـ ١٩١٢) و (١٩٢٩ ـ ١٩٣٤) . وكانت قرى النوبة ومدنها تنتقل إلى مواقع أعلى ، وجرت أعمال الحفر فى الأماكن التى تعرضت لغمر مياه النيل ، التى ارتفعت لمنسوب ١٢١ متراً فوق سطح البحر ، وقويت المعابد التى تعرضت لأن تغمرها المياه معظم أشهر السنة ، ثم تنحسر عنها وقت الفيضان (يوليه وأغسطس من كل عام) .

ولكن بناء السد العالى ، الذى أنشئ من أجل توسيع الرقعة الزراعية فى مصر ، وتوليد الكهرباء ، سوف يرفع مياه النيل جنوب أسوان ، وحتى شلال دال فى ◀

شحاته آدم محمد :

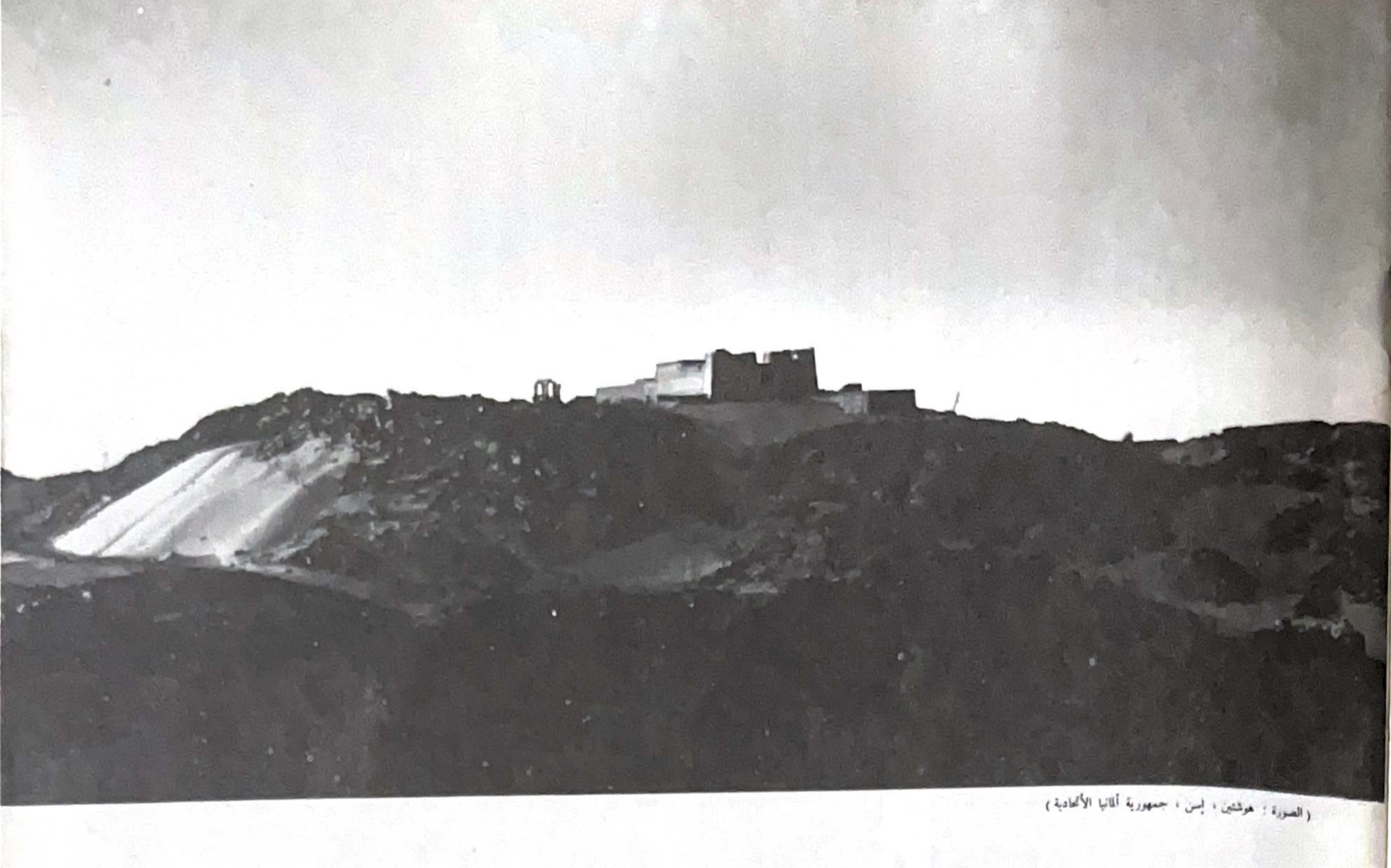
مصرى ، رئيس هيئة الآثار المصرية وكان قبل ذلك مديراً لمكتب آثار النوبة ثم مديراً لمركز تسجيل الآثار بوزارة الثقافة بمدينة القاهرة ، وقد كتب عدة مقالات ودراسات عديدة عن الآثار المصرية منها مؤلف هام له باسم : « الرحالة فى مصر القديمة » .

(الصورة : جورج جرستر - رافو ، بارس)

لغز من ١٦٠٠ حجر

معبد كلابشة الذى أعاد بناءه الأمبراطور أغسطس على موقع معبد شيد فى أواخر عهد البطالمة . والذى يبلغ طوله ١٢٠ متراً وعرضه ٧٠ متراً . هو فى ضخامة كالكاتدرائية قوطية ، وكان مكرسا لعبادة الإله مندوليس . النظير النوبى للإله حورس ابن الإلهة إيزيس . وتبين الصورة بعاليه المعبد فى موقعه الأول على الضفة اليسرى للنيل على بعد حوالى ٥٠ كم جنوبى أسوان . وعندما صار مهدداً بالغرق نهائياً تحت مياه النهر على أثر بناء السد العالى . تولت جمهورية ألمانيا الاتحادية مهمة تفكيكه ثم إعادة بنائه فى موقع بعيد . وتطلب هذا العمل نقل ١٦٠٠ كتلة من الحجر الرملى يبلغ وزن كل منها أحيانا ٢٠ طناً . فى مراكب إلى مخزن (يمينا) بالقرب من الموقع الجديد فوق تل على الضفة اليسرى للنيل على بعد كيلومتر واحد جنوبى السد العالى . وقد بدأ إعادة بناء السد العالى فى عام ١٩٦٢ . ووضع آخر قطعة من قطع هذا اللغز الضخم فى موضعه فى شهر أكتوبر ١٩٦٣ وفى هذه الأثناء . فى شهرى يناير وفبراير ١٩٦٢ أعادت مصلحة الآثار المصرية بناء أثر رومانى صغير . هو كشك كرتاسى . ويأعلى إلى اليسار معبد كلابشة والكشك إلى اليسار) فوق موقعهما الجديد المهيب .





(الصورة : هوشتين ، إسن ، جمهورية ألمانيا الاتحادية)

السودان ، ليكون بحيرة شاسعة ترتفع أكثر من ستين متراً (من منسوب ١٢١ متراً إلى منسوب ١٨٣ متراً فوق سطح البحر) ، لتبتلع كل معالم الحياة الحديثة والقديمة فى جوفها للأبد .

وهنا بدت المأساة ، التى دفعت الحكومة المصرية فى إبريل ١٩٥٩ ، والحكومة السودانية فى أغسطس من العام نفسه ، إلى أن تيمِّما شطر اليونسكو ، تطلبان توجيه نداء عالمى لإنقاذ تراث النوبة جميعه ، ذلك التراث الذى يعد جزءا من التراث الإنسانى ، والذى يمثل جزءا من حضارة كان لها دورها فى تاريخ هذه البقعة من وادى النيل .

ولم تكن النوبة شيئا غريباً على المجتمع الدولى ، فقد كانت على صفحات الكتب التى تركها قدامى الكتاب من الأغريق والرومان ، والرحالة الأوربيون من أمثال لويس نوردن ولودفج بوركها ردت وايميليا ادواردز ، كما تناولتها بالدراسة والتسجيل البعثات العلمية والأثرية فى القرن التاسع عشر ، كبعثة نابليون التى جاءت إلى فيلة ، وبعثة فرنسوا شمبليون الذى يرجع إليه الفضل فى حل رموز اللغة الهيروغليفية ، وبعثة كارل ريتشارد لبسيوس التى تركت اثنى عشر مجلدا عن آثار مصر والنوبة ، والبعثات الأثرية التى قامت بأعمال الحفر والمسح الأثرى فى النوبة المصرية والسودانية خلال القرن العشرين ، وهى البعثات التى كشفت عن ثقافات وحضارات النوبة بين أسوان شمالا وكرمه جنوبا .

بيد أن المشكلة ، هذه المرة ، كانت أكثر تعقداً . ولهذا عقدت اليونسكو مؤتمراً من الخبراء لوضع خطة لعمل دولى يهدف لإنقاذ تراث النوبة جميعه ، وقد اجتمع هؤلاء فى مصر فى أكتوبر ١٩٥٩ ، ثم زاروا بلاد النوبة ، وتفقدوا آثارها ، بين أسوان وسمنة ، وأوصوا بحصر جميع المواقع الأثرية ، وتسجيل آثار النوبة جميعا ، ونقل المعابد وأقامتها على منسوب يعلو عن منسوب بحيرة السد العالى . ثم وجه المؤتمر عناية خاصة لمعبدى أبى سنبل ، فدرس عدة مشروعات لحمايته عن طريق إنشاء سدود ، أو رفع المعبدين على روافع هيدروليكية . وأوصى ببناء سد ترابى صخرى من حولها . كذلك بحث المؤتمر ثلاثة مشروعات لحماية معابد فيلة : أولها يقوم على أساس بناء حائط واق حول المعابد ، والثانى يرمى إلى حمايتها عن طريق فكها ثم إعادة بنائها فوق جزيرة فيلة بعد تعليتها ، أما الثالث فيقوم على أساس إنشاء ثلاثة سدود تربط بين جزيرة بيجه وأجلكيه والشاطئ الأيمن للنيل ، وهو المشروع الذى أوصى به المؤتمر .

وعلى ضوء هذه الدراسة ودراسة مماثلة عن إنقاذ آثار النوبة السودانية وضحت خطة العمل الدولى ، كما أرادت اليونسكو ومجلسها التنفيذى ، مما دعا المدير العام لليونسكو لتوجيه ندائه الدولى يوم ٨ مارس ١٩٦٠ لتقديم العون المادى والفنى لإنقاذ آثار النوبة فى مصر والسودان ، تلك الآثار التى وصفها بأنها تراث مشترك .

ولقد عقبت هذا النداء اتصالات دولية مكثفة ، لازمت الحملة الدولية فى جميع مراحلها . وانتهجت الحكومة المصرية نهجاً دل على سعة الأفق وروح الوعى للمشكلة ، فأوفدت سلسلة متصلة من الآثار المصرية الموجودة فى متاحفها لتعرض خارج مصر ، لزيادة الاحساس بقيمة التراث المصرى ودوره الحضارى . كما شكلت لجنة لرعاية المشروع ، ولجان استشارية تضم نخبة ممتازة من الخبراء فى مجال الآثار والهندسة والمال . وشكلت مصر جهاز انقاذ آثار النوبة الذى اضطلع بدور فعال فى هذا المجال . كما شكل المؤتمر العام لليونسكو عام ١٩٦٢ اللجنة التنفيذية للإشراف على أعمال المشروع . وكان لكل هذا فضله فى نجاح هذه الحملة ، وتحقيق أهداف هذا العمل الدولى .

ولقد كان أول من لبى النداء الدولى ، وليس هذا بالشىء الغريب ، هى بعثات الحفر والتنقيب والمسح الأثرى فى بلاد النوبة فى مصر والسودان . وقد كشفت هذه البعثات عن بقايا الحضارات التى تعاقبت على النوبة ، منذ عصر فجر التاريخ حتى العصور المسيحية والإسلامية[1] ، من بقايا المدن والقلاع والحصون والجبانات والسدود ، وأتاحت الفرصة لدراسة الأجناس والسلالات البشرية والحيوانية ، وألقت مزيداً من الضوء

(١) عملت فى أعمال الحفر فى النوبة المصرية بعثات مصر والولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة والاتحاد السوفيتى وألمانيا الاتحادية وسويسرة وايطاليا وهولندة وفرنسا وكندا وهنغاريا وأسبانيا والهند والنمسا وتشيكوسلوفاكيا .

مراحــل حمــلة النوبة

عشرون سنة من حملة النوبة :

١٠ مارس ١٩٨٠	ختام حملة اليونسكو الدولية لإنقاذ كنوز النوبة .
أغسطس ١٩٧٩	انتهاء أعمال نقل فيلة إلى اجيلكيا .
ابريل ١٩٧٧	انتهاء أعمال الأساسات لفيلة على جزيرة اجيلكيا - وبدء أعمال إعادة البناء .
مايو ١٩٧٤	الانتهاء من إقامة السد المؤقت حول جزيرة فيلة - وتفريغ المياه بالضخ .
١٩٧٢	البدء في عملية إنقاذ فيلة ، بقصد نقل الآثار إلى جزيرة اجيلكيا المجاورة .
١٩٧٠	الانتهاء من بناء السد العالى
٥ نوفمبر ١٩٦٨	دعوة المدير العام لليونسكو للقيام بالحملة الدولية لإنقاذ معابد فيلة .
٢٢ سبتمبر ١٩٦٨	الانتهاء من عملية أبو سمبل .
سبتمبر ١٩٦٤	بدأ ارتفاع مياه السد العالى بأسوان .
١٤ مايو ١٩٦٤	تحويل مياه النيل لتغذية توربينات السد العالى .
ربيع ١٩٦٤	بداية العمليات (بناء سد مؤقت لتسهيل نقل معابد أبو سمبل إلى موقع مرتفع) .
١٩٦٢ - ١٩٦٣	تفكيك - ونقل - وإعادة بناء معبد كلابشة .
١٩٦٢	المؤتمر العام لليونسكو يشكل اللجنة التنفيذية للحملة الدولية بالنوبة .
صيف ١٩٦٠	قيام مصلحة الآثار المصرية بتفكيك الهيكل الشمالى بطفة - ومعبد ديبور - وكشك كيرتاسى .
٨ مارس ١٩٦٠	يوجه المدير العام لليونسكو نداء إلى المجتمع الدولى لحمايه كنوز النوبة .
٩ يناير ١٩٦٠	الاحتفال الرسمى يبدء أعمال السد العالى بأسوان .
٢٤ أكتوبر ١٩٥٩	الحكومة السودانية تدعو اليونسكو لمساعدتها فى إنقاذ المواقع والتحف الأثرية فى النوبة السودانية .
٦ أبريل ١٩٥٩	الحكومة المصرية تدعو اليونسكو لمساعدتها فى إنقاذ التراث الأثرى النوبى فى مصر - والذى تهدده مياه البحيرة الصناعية التابعة للسد العالى بأسوان .

برزت عمليتان مثيرتان بنوع خاص فى الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة : تفكيك ، ونقل ، وإعادة بناء معابد أبو سمبل (انظر صفحتى ١٠ ، ١١) وفيلة (انظر صفحتى ٤٦ ، ٤٧) . وتقابل المفاخر التقنية الحديثة هذه ، فى عصرنا الحاضر ، الأعمال العظيمة الجريئة التى انجزها قدماء المصريين الذين شيدوا فيلة ، ونحتوا أبو سمبل فى صخور تل نوبى منذ ٣٠٠٠ سنة .

أبو سمبل :

جملة التكاليف : ٤٢ مليون دولار ، نصفها تكفلت به جمهورية مصر العربية ، والنصف الآخر جمع عن طريق مساهمات دولية .

المنظمون : وزير الثقافة بجمهورية مصر العربية ، بمساعدة اليونسكو .

اللجنة التنفيذية : للحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة ، مكونة من ممثلى ١٥ دولة من الدول الأعضاء انتخبهم المؤتمر العام لليونسكو .

المستشارون : مجموعات ولجان من الخبراء : من معماريين وأثريين ومهندسين .

استشارات هندسية ومعمارية : ف.ب.ب ستوكهولم .

على العلاقات والصلات بين الشمال والجنوب ، كما قامت دراسات فى النوبة المصرية تناولت شعب النوبة وحياته ومجتمعاته الحديثة ، وفى الوقت نفسه كانت تجرى أيضاً أعمال تسجيل المعابد والمقابر المصرية ، فنشطت بعثات مركز تسجيل الآثار المصرية التى كانت تسجل الآثار فى النوبة المصرية منذ عام ١٩٥٦ بالتعاون مع اليونسكو التى أسهمت فى إنشاء هذا المركز ، وخبراء من فرنسا وبولندة وبلجيكا ، كما سجلت بعثة المعهد الشرقى لجامعة شيكاغو معبد بيت الوالى ، وسجلت بعثات الحفر نقوش الصخور . واستعانت البعثات بالخرائط الفوتوجرامترية التى أعدها المعهد الجغرافى القومى بفرنسا بالتعاون مع القوات المسلحة المصرية ، تلك الخرائط التى جهزتها مصر ووضعتها تحت تصرف مشروعات الإنقاذ . وقد اكتملت أعمال الحفر والمسح الأثرى والتسجيل عام ١٩٦٥ ، وهو العام الذى بدأت تعلو فيه مياه بحيرة السد العالى .

أما نقل المعابد فقد بدأ أيضا عام ١٩٦٠ ، حيث قامت الحكومة المصرية فى هذا العام بنقل معابد طافة ودابود وقرطاسى على نفقتها الخاصة ، كما نقلت على نفقتها أيضا عام ١٩٦٢ معابد الدكة والمحرقة ودندور . وأنقذت حكومة ألمانيا الاتحادية معبد كلابشة ، وأعادت بناءه جنوبى السد العالى ، وذلك بين عام ١٩٦١ وعام ١٩٦٣ ، وفى هذا الموقع أعادت مصر بناء معبد قرطاسى . ويرجع بناء هذه المعابد جميعا إلى العصر الإغريقى الرومانى . كذلك نقلت مصر معبد بيت الوالى وشيدته بجوار معبد كلابشة ، ومعبد وادى السبوع الذى شيدته على بعد خمسة كيلومترات من موقعه الأصلى .

(الصورة : جورج جيرستر - رافو ، باريس)

(بأعلى) معبد أبو سمبل الكبير فى موقعه الأصلى قبل أن يرتفع منسوب مياه السد العالى بأسوان . وعلى الصفحتين المزدوجتين الوسطيين صورة المعبد فى موقعه الجديد على الهضبة

أتاحت حملة النوبة الحصول على مجموعة وفيرة من الرسومات الحائطية . وهذه الزرافة المحفورة فى الصخر هى واحدة من الكثير من دلائل فن العصر الحجرى القديم ، اكتشفتها وصورتها بعثة جامعة ستراسبورج فى منطقة توماس فى قلب النوبة المصرية . وقد سجل الأثريون فى هذه المنطقة مجموعة ثمينة من كنوز فن التصوير الحائطى التى يعيش فيها عالم الحيوان فى عصور افريقيا القديمة : من فيلة ، وزراف ، وأفراس النهر ، والغزلان ، والمعز ...

(الصورة : دومنيك لاجو ، باريس)



العصور الفرعونية

بقلم : تورنى سيف سوذربرج

مسافة تبلغ حوالى ١٥٠٠ كم جنوبا . هذه الاكتشافات غير المتوقعة بالمرة فى النوبة ، وبأشكال غير معروفة إلا فى مناطق جنوبية نائية ، تفتح آفاقا جديدة فى مجال التطور الثقافى لهذا الجزء من أفريقية . ومن ثم يغدو فى الإمكان دراسة التأثيرات الثقافية فى مناطق شاسعة ، وبالتالى ربط ثقافات الجنوب بثقافات الشمال التى نعرف تطورها وتاريخ هذا التطور معرفة أفضل .

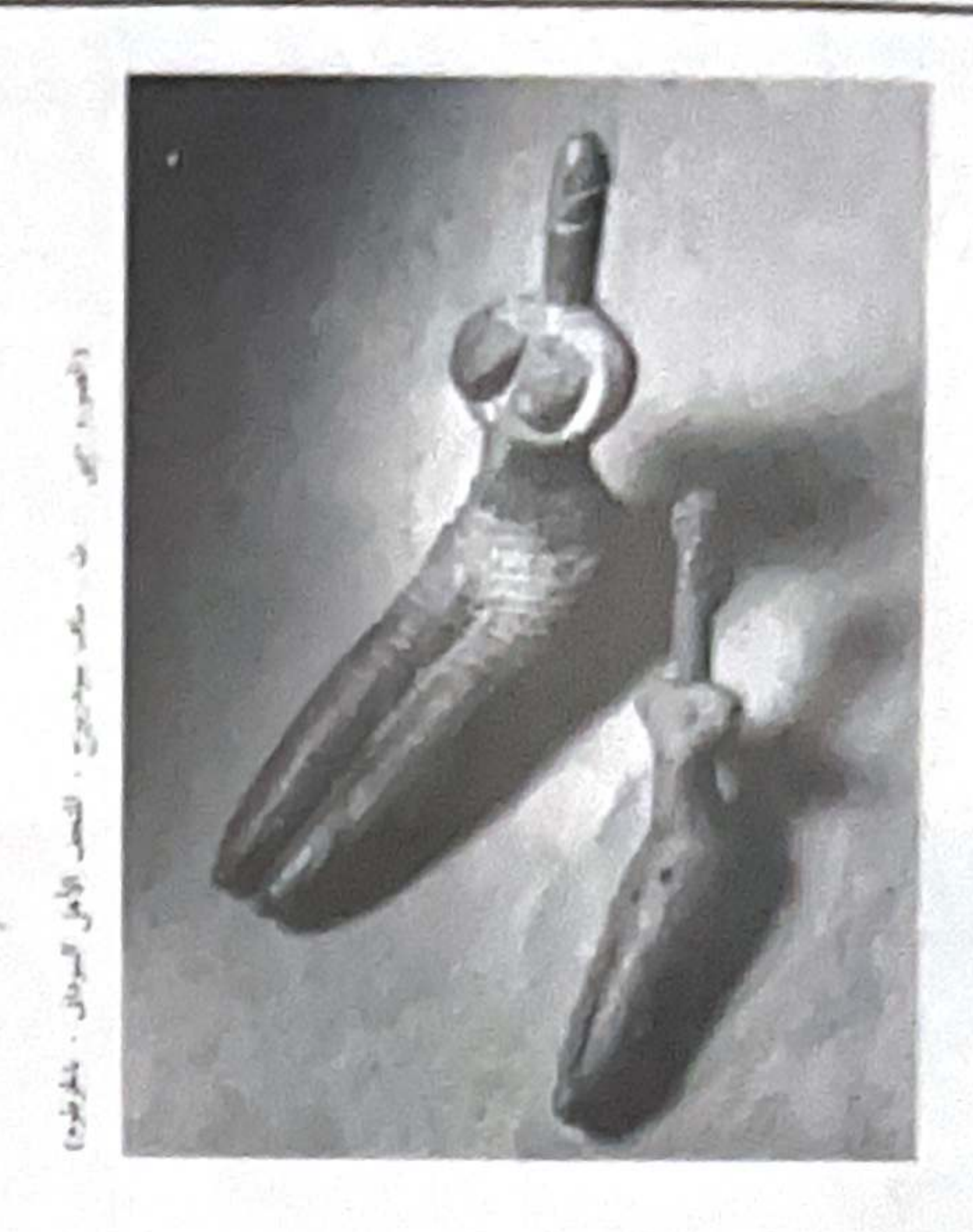
هذه «المجموعات التقنية» أو المجموعات الثقافية ذات التكنولوجيات المتشابهة ، التى لا يوجد بينها حتما رابطة سياسية أو عرقية وثيقة ، قد تكون قاعدة مناسبة لظهور المراحل الأولى فى تاريخ الإنسان . كانت تلك هى الحال فى القسم المصرى من وادى النيل حيث أقام الفراعنة الدولة الأولى فى عام ٣٠٠٠ ق . م .

وفى الوقت الذى حدث فيه هذا التطور فى الشمال قامت حضارة من نمط معين امتدت حتى شملت النوبة كلها ، سماها علماء الآثار «المجموعة أ» ، وكانت الزراعة قد ظهرت دون شك قبل ذلك بوقت بعيد فى وادى النيل ومجاوراته ، ولذلك فإن ظاهرة فترات القحط تمنعنا من أن نقيم صلة مباشرة مع «المجموعة أ» فى العصر الذى كف فيه النوبيون عن مزاولة الصيد والقنص ، واعتمدوا فى عيشهم أساسا على الزراعة وتربية الماشية . وأنشأ هؤلاء النوبيون حرفة بديعة ، وبخاصة صناعة الأوانى الفخارية ، واستوردوا سلعا ترفية من الدولة الفرعونية الشمالية .

وتدل المقابر النفيسة التى كشفت عنها بعثة من شيكاجو بالقرب من قسطل شمالى الحدود السودانية على وجود مركز سياسى يحكمه زعيم قوى أو ملك . وقد تكون هذه المقابر سابقة على المقابر الملكية المصرية الأولى ، ومن المحتمل أن يكون قد حدث تطور نحو نمط من الدولة المركزية فى النوبة فى الوقت الذى حدث فيه مثل هذا التطور فى مصر . ومع ذلك فإنه من المستبعد أن تكون هذه المملكة النوبية قد بلغت من القوة والفاعلية ما بلغته

تورنى سوديربرج

سويدى ، وهو استاذ علم الآثار المصرية بجامعة ابسالا ورئيس الأكاديمية الملكية للآثار والتاريخ والآداب بالسويد منذ عام ١٩٧٨ . وهو مؤلف لعدد من المقالات والكتب منها دراسة رائعة له بعنوان «المصريون والنوبيون» ، كما كان أيضا عضوا فى اللجنة التنفيذية للحملة الدولية لأنقاذ آثار النوبة منذ عام ١٩٦٢ . وكان رئيسا لبعثة الدول الاسكندنافية المشتركة إلى بلاد النوبة .



اكتشفت البعثة الاسكندناوية هذين التمثالين الصغيرين من الفخار لامرأتين جالستين ، فى مقبرة خلفا دغيم . ويرجع التمثالان إلى حوالى عام ٣٠٠٠ ق . م . وينتميان إلى الثقافة المسماة «ثقافة المجموعة أ» والتى نمت فى النوبة السفلى فى العصر الذى نشأت فيه فى الشمال أول دولة فرعونية . ويصور التمثال الأكبر امرأة راشدة ، ويصور الثانى فتاة صغيرة . ولعل دورهما يتمثل فى توفير

نوع من التأمين السحرى للحياة فى الآخرة ، على غرار بعض المنحوتات الجنازية المصرية . وإلى اليمين رأس فرس النهر ، من طين نضج ، وينتمى إلى نفس الثقافة النوبية ، وقد عثر عليه فى قسطل بالنوبة المصرية . ولا شك أن هذا الرأس المتسق الاسلوب ، كان جزءا من تمثال كبير الحجم (الارتفاع ١٩.٧ سم)

الدولة الفرعونية الأولى .

وفى البداية كانت النوبة تزاول التجارة مع مصر بصورة سلمية لصالح البلدين ، الا أنه حين وطد المصريون سلطتهم راحوا يستولون على البضائع بالقوة . وقبل نهاية الأسرة الثانية المصرية ، فى حوالى عام ٢٦٥٠ ق.م ، اختفى سكان «المجموعة أ» من النوبة السفلى ، ولعل المصريين قد أبادوهم أو طردوهم ، وربما يكون هؤلاء السكان قد هجروا ذلك الجزء من وادى النيل بسبب التغيرات التى طرأت على المناخ .

ويبدو أن من خصائص تاريخ النوبة أن يكون هذا البلد فقيرًا حين تكون مصر مزدهرة . وكثيرًا ما كانت ذرى السلطة المصرية تقابل قصورًا سياسيًا وثقافيًا فى النوبة . ويتحقق هذا الوضع أيضًا فى «الدولة القديمة» ، فقد بلغت الحضارة المصرية آنئذ أوجها ، وكانت مصر أكبر دولة فى عصرها سعة وثراء .

ثم إنه ليس ثمة ما يثبت أن «المجموعة أ» قد بقيت فى النوبة السفلى بعد الأسرتين المصريتين الأوليين ، فالواقع أن الأبحاث الحديثة لم يتسن لها أن تثبت وجود ثقافة أهلية قبل الأسرة السادسة ، أى طوال عدة القرون التى شيدت خلالها أهرام الجيزة وسقارة العظيمة .

وبعكس ذلك تحقق وجود المصريين فى النوبة السفلى بفضل مجموعتين هامتين من الاكتشافات . أولى هاتين المجموعتين ، وهى معروفة منذ العقد الرابع من هذا القرن ، تتكون من مجموعة من الكتابات المنقوشة على الصخور ومن الأدوات ، موجودة بالقرب من محاجر الجزء الغربى من الصحراء حيث كان المصريون يستخرجون «الديوريت» ليبنوا به التماثيل الملكية المشهورة لخفرع وغيره من الملوك . أما المجموعة الثانية فتتمثل فى مدينة محصنة كشف النقاب عنها الأستاذ ايمرى ، وتقع شمالى قلعة بوهن ، فى عهد الدولة الوسطى ، فى القسم الشمالى من السودان . وتحمل الخزفيات (السيراميك) المصرية وبقايا الأفران المخصصة لصهر النحاس على الاعتقاد بأن هذا الموقع كان مركزًا هامًا لاستغلال المواد الأولية فى النوبة .

ويبدو أن هذه الأنشطة المصرية قد جرت خلال فترة من الركود فى تاريخ النوبة . لذلك تخالجنا الحيرة من وجهة النظر الأثرية ، حين يؤكد لنا الملك سنفرو أنه «احتل أرض النوبة ، وأسر سبعة آلاف شخص ، واستولى على مئتى ألف رأس من الغنم» ، ذلك لأنه لم يمكن العثور على أى أثر لهؤلاء الناس أو قطعانهم .

إن ما يذكره الملك سنفرو بشأن الماشية على أنها من خصائص الاقتصاد النوبى ليدل على أن أعداءه كانوا من الرعاة الرحل الذين استقر بهم المقام فى منطقة الصحراء الحالية التى كانت وقتئذ أكثر ملاءمة للمعيشة ، وذات مناخ أكثر رطوبة ، أو ربما أيضًا فى دنقلة ، حيث كشفت بحوث حديثة عن مرحلة متوسطة بين «المجموعة أ» و «المجموعة ج» التى تمثل آخر سكان النوبة السفلى . يبدو إذن أن مزارعى «المجموعة أ» قد صاروا مرة ثانية بدوا رحلا ، وهجروا البلاد لأسباب سياسية أو مناخية ، وربما للسببين معًا .

وثمة أسئلة عديدة بقيت دون جواب ، والأمر كذلك بالنسبة لفترات مماثلة لم يوضح لنا أى كشف أثرى ما حدث خلالها على وجه اليقين . ونلحظ هذا القصور بعد عام ألف قبل الميلاد ، ولمدى قرابة ألف عام ، ثم من بداية العصر الوسيط حتى القرن التاسع عشر .

ولدينا عن أواخر الدولة القديمة الكثير من النصوص المتعلقة ببعثات من القوافل المصرية المتجهة إلى النوبة ، ابتداء من نص «أونيس» المشهور الذى يظهر على قبره فى سقارة إلى النصوص الموجودة فى مقابر حرخوف ، وبيبى نخت ، وغيرهما . وتتحدث هذه النصوص عن مبادلات تجارية سلمية أو معارك فى النوبة السفلى ، وربما أيضًا فى دنقلة . وقد أصبحت هذه النصوص التى تتحدث عن رحلات إلى الخارج من الأدب الكلاسيكى ، وألهمت كتابات وفيرة حاولت إعادة تصوير مسارات هذه الرحلات ، وتعريف البلاد المذكورة فيها . وأصبحنا اليوم بفضل اكتشاف كتابات جديدة منقوشة فى النوبة السفلى فى وضع أفضل يتيح لنا أن نفعل ذلك . وتتضمن هذه الاكتشافات أقدم المخلفات ، تلك التى كان علماء الآثار لزمن طويل يسمونها «المجموعة ج» .

وانا لنشهد من جديد كيف أن التجارة السلمية تتحول إلى نزاع مسلح حين تتحد القبائل النوبية المختلفة تحت قيادة زعيم واحد لمواجهة الغارات المصرية . وكانت التحالفات تنقطع حين تضعف السلطة المركزية المصرية ، وتنشب منازعات داخلية تجعل من المستحيل أو بلا جدوى ممارسة التجارة أو شن الحروب . وفى هذه الظروف تكتسب الحضارة النوبية ثقافة خاصة بها مختلفة كثيرًا عن نمط الحياة المصرية ، ولكنها مع ذلك متأثرة إلى حد ما بها ، كما يدل على ذلك الأشياء المستوردة .

وعندما ضعفت مصر بعد سقوط الدولة القديمة ظهر تأثيرها على «المجموعة ج» القديمة في علاقات سلمية ومبادلات تجارية استفاد منها النوبيون . وبعد أن توحدت مصر في عهد الأسرة الحادية عشرة سعى ملوك مصر إلى إعادة بسط نفوذهم في النوبة بوسائل أشد عنفًا ، الأمر الذي أدى الى انخفاض الصادرات المصرية إلى النوبة . ونحيطنا بعض النصوص المصرية في هذا العصر علمًا بأن المصريين أجبروا النوبيين على دفع ضرائب ، الأمر الذي أدى إلى اختلال التبادل التجاري اضرارًا بمصالحهم .

وتستعيد مصر كامل قوتها في عهد الأسرة الثانية عشرة ، وتغزو عندئذ بلاد النوبة السفلى حتى سمنة عند منطقة الجندل الثاني . وبفضل البعثات المتخصصة في النقوش ، التي عملت ثمة في العقد السابع من القرن العشرين ، وبخاصة البعثة التشيكوسلوفاكية ، أصبح في حوزتنا اليوم وثائق تاريخية جديدة متعلقة بهذا الغزو ، وبالحفائر التي أجريت في بوهن ، وميرجسة ، وسمنة ، الخ . زودتنا بفكرة عن الفن الشديد الاتقان الذي يتجلى في القلاع المصرية وعن تاريخ الاحتلال العسكري (انظر المقال صفحة ...)

وقد بنيت سلسلة القلاع المصرية في منطقة الجندل الثاني للدفاع عن الحدود المصرية عند سمنة وحماية الطريق التجاري في الجنوب . وكان هناك جنوبي الحدود المصرية مملكة كوش ، وعاصمتها كرمة في دنقلة . غير أننا نعرف الآن أنه كانت هناك عاصمة أكثر تواضعا في جزيرة ساي ، حيث أجريت أخيرًا بعض الحفريات .

وكانت ثقافة كرمة معروفة لنا قبل حملة النوبة الحالية بوقت طويل ، بفضل الحفريات التي أجراها عالم الآثار الأمريكي ريزز قبل الحرب العالمية الأولى . وكانت الآثار الرئيسية هناك عبارة عن مبنى هائل من الآجر يسمى «دفوفا» غرب ، وجبانة تضم ما يبدو أنه أول القبور الملكية الافريقية الكبيرة خارج مصر . كان الملوك يدفنون مع نسائهم وأطفالهم في حجرة وسطى ، في حين أن الخدم ، ويبلغ عددهم أحيانًا أربعمئة شخص ، كانوا يدفنون أحياء في ممرات جانبية . وكان بعض الأشياء التي اكتشفت ثمة من صنع الأهالي ، غير أن وفرة الأشياء المصرية حملت ريزز على أن يستنتج أن هذه المقابر تنتمي إلى مصريين استقر بهم المقام في النوبة . ثم جرت بحوث لاحقة ناقضت هذا التفسير . وتدل هذه الاكتشافات الأثرية على ثراء مملكة كرمة ، كما يشهد نظام الدفاع الذي أقامه المصريون في وجه ملوك هذه الدولة بقوتها السياسية والعسكرية .

وبعد نهاية الدولة الوسطى ، في العصر الذي سيطر فيه على مصر أجانب يطلق عليهم اسم الهكسوس ، انتهت السيطرة العسكرية المصرية على النوبة السفلى ، وهجرت القلاع . ويرجع تاريخ أكبر المقابر وأكثرها ثراء إلى هذه الفترة التي تتسم بنهضة مملكة كرمة ، المقر المحتمل لملك كوش الذي انبسطت سيادته على بلاد النوبة السفلى كلها . وترك المصريون الملحقون بخدمته كتابات منقوشة على القلعة المصرية القديمة في بوهن التي أصبحت وقتئذ مركزًا سياسيًا «كوشيا» في النوبة السفلى .



هذه «الآبار» الغريبة المردومة جوانبها الحجرية هي في الحقيقة قبور في جبانة نوبية مصرية تنتمي لثقافة «المجموعة ج» . وترجع إلى عام ١٩٠٠ ق . م تقريبا ، وقد اكتشفت في سرا - شرق بالنوبة السودانية .

(الصورة اليسرى : البعثة الأثرية الاسكندنافية)



هذا الرأس الصغير لامرأة - من فخار نضج . كروي الشكل تقريبا (ارتفاعه ٥.٤ سم) قد اكتشف في جبانة بعنيبة في النوبة المصرية ، وينتمي إلى الثقافة النوبية من «المجموعة ج» . ولعله يرجع إلى تاريخ بين ١٩٩٠ و ١٥٥٠ ق . م . وقد صورت العينان والفم بحزات بسيطة ، أما الثقوب في الجزء الخلفي فإنها تمثل الشعر .

(الصورة : الكسيس فوروتشوف - اليونسكو - المتحف المصري - جامعة كارل ماركس ، ليبزج) (جمهورية المانيا الديمقراطية)



ينتمي هذا الوعاء المصنوع من طين نضج (وقطره ١٣.٩ سم) إلى «المجموعة ج» أيضًا - وقد وجد في مقبرة بأدندان . وربما يرجع تاريخه إلى ما بين ١٩٠٠ و ١٦٥٠ ق . م . وهو مزين بصور أبقار .

(الصورة : متحف المعهد الشرقي - شيكاجو)

وقد دلت حملة الحفريات التى اضطلعت بها اليونسكو على أن هناك العديد من المسائل التى لا يمكن البت فيها لعدم وجود براهين كافية : من ذلك مثلا اختفاء «المجموعة أ» ، والثغرة التى عقبت ذلك فى تاريخ النوبة ، وظهور «المجموعة ج» ، والعلاقات مع الجنوب ، والطبيعة الحقيقية للسيطرة «الكوشية» فى فترة احتلال الهكسوس لمصر . ولابد من البحث فى جهات أخرى عن اجابات على هذه الأسئلة . لذلك يجرى المزيد من البحوث الأثرية المكثفة فى كرمة ، وجزيرة ساى ، وفى أماكن أخرى بأقليم دنقلة

وفى المستطاع ، كما يتبين من التقارير الأولى ، متابعة التطور الثقافى فى كرمة منذ الدولة القديمة حتى زوالها فى عهد الدولة الحديثة حين ضم المدينة ملوك الأسرة الثامنة عشرة . ويبدو من جهة أخرى أنه حدث انتقال من «المجموعة أ» إلى «المجموعة ج» فى دنقلة أثناء الفراغ الذى تخلل تاريخ النوبة السفلى . وهناك ثلاث مجموعات أثرية - تنتمى دون شك إلى مختلف المجموعات العنصرية - تهيمن على تاريخ النوبة السفلى إبان عصر الهكسوس وبداية الدولة الحديثة : «المجموعة ج» ، و«مجموعة كرمة» و«مقابر بان» التى تنتمى إلى إحدى قبائل الصحراء وتسمى مادجا (البادجا اليوم) ، ونجدها أيضًا بين الجنود المرتزقة بمصر . ويبدو أن هذه المجموعات الثلاث تنتسب إلى دنقلة ، وكانت مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بمرحلة سابقة بالنسبة إلى المنطقة الواقعة شمالا . وحول ردوفا غرب ، عند كرمة (حيث يمكن دراسة كل هذه المراحل فى الكثير من الجبانات) ، اكتشفت مدينة محصنة كانت أقدم مركز حضرى فى أفريقية خارج مصر الفرعونية .

وفى نهاية سيادة الهكسوس على مصر نجد الكثير من النصوص عن المحرر الطيبى ، الملك كاموسى ، تصف الموقف السياسى . وكان الهكسوس يحكمون الشمال ، فى حين يحكم كاموسى القسم الأوسط من مصر حتى أسوان ، ويحكم «ملك كوش» (فى كرمة) كل المنطقة الواقعة جنوبى أسوان . ولم تغير سيادة كرمة السمة الثقافية للنوبة السفلى .

وخبرت حضارة «المجموعة ج» تطورًا آخر ، إذ بقى قسم من السكان متمسكا بالتقاليد القديمة ، وبخاصة تلك المتعلقة بالطقوس الجنازية ، والخزفيات ، الخ ، مع استعمال المنحات الكمالية الواردة من مصر . غير أن مجموعات أخرى من السكان يبدو أنهم قد خضعوا بالكامل لتأثير الحضارة المصرية حتى إنه ليصعب تمييزهم من المهاجرين القادمين من مصر .

وفى رأيى أن التفسير المعقول لذلك هو أن النوبيين حين تحرروا من الوصاية المصرية لم يكن فى نفوسهم أى نفور من الثقافة والمنحات المصرية . وإذ أصبحوا أحرارًا اتخذوا لأنفسهم للحال الطابع المصرية ، ولم يترددوا فى الحاق مصريين بخدمتهم . ونتيجة لذلك ضعفت قدرتهم على المقاومة ، وكان تصديهم للغزو المصرى فى بداية الأسرة الثامنة عشرة بلا جدوى .

وتزودنا نصوص الملك كاموس بتفاصيل عن العلاقات القائمة بين الهكسوس وملك كوش النوبى . فقد حاول الهكسوس فى شمال مصر عبثا أن يحملوا النوبيين ، اى سكان كرمة ، على مهاجمة كاموس من الجنوب حين كان الأخير يحاربهم فى الشمال . وفشلت هذه الخطة لأسباب مجهولة ، ونجح كاموسى بمساعدة أخيه فى طرد الهكسوس من مصر ، ثم نجح علاوة على ذلك فى غزو النوبة السفلى كلها . ومد خلفاؤهما تحتمس الأول وتحتمس الثالث سلطانهما إلى الجنوب ، وقضيا على أمبراطورية كرمة ، وجعلا الحدود المصرية عند الجندلين الرابع والخامس ، وبذلك ضما إلى الأمبراطورية اقليم دنقلة بمجموعه .

ولاشك فى أن تاريخ النوبة فى ظل السيادة المصرية ابان الدولة الحديثة (١٥٥٠ - ١٠٨٠ ق.م) يعتبر من أروع الفصول فى تاريخ البشرية من عدة وجوه . وفى حوزتنا قدر هائل من المواد الأثرية والمكتبية عن هذه الفترة ، وأكثر من ذلك عن المشاركين فى هذا التاريخ . وثمة رسالة دكتوراه حديثة عن الإدارة المصرية للمستعمرة النوبية استخدمت ما لا يقل عن ٨٠٠ وثيقة مكتوبة أو مصورة (ايتونية) لوصف كل آليات الإدارة : من أشخاص مستخدمين ، ومهنهم ، والضرائب المدفوعة ، والدخول المصدرة ، الخ .

وأثير عدد من الأسئلة : هل استبدل بالنوبيين مهاجرون مصريون ؟ هل غادر النوبيون بلاد النوبة برغبتهم ، أو أن المصريين عملوا على إدماجهم معهم حيث هم فى بلدهم ؟ إن النصوص والأيقونات المصرية التى تصف النوبة فى عهد الدولة الحديثة تؤكد بالأحرى الفرض الأخير . ومع ذلك فهناك الكثير من جبانات عصر الدولة الحديثة من النمط النوبى التقليدى تنتمى إلى جماعات قاومت النفوذ المصرى إلى حد كبير . وحافظت على معتقداتها وثقافتها القديمة . فضلا عن ذلك فإن المنظر العام الأثرى تهيمن عليه المقابر المصرية . كيف نفسر ذلك ؟ هل كان شاغلو هذه المقابر مصريين أو نوبيين ؟ تضاربت آراء الاخصائيين فى هذا الصدد ، وربما كان الفرضان صحيحين . ففى البلد ، بعيدا عن المراكز الإدارية ، تميل دلالات قوية إلى تأكيد أن المقابر تنتمى بالأحرى إلى نوبيين . وحتى فى الجبانات المصرية يدل سوء فهم الطقوس الجنازية المصرية على أن أصحابها نوبيون ممثلون وليسوا مصريين خالصين .

وإذا استندنا إلى مختلف القبور النوبية التى اكتشفت أثناء الحملة الدولية اتضح لنا أن المصريين لم يبيدوا ولم يطردوا سكان النوبة السفلى بأية حال من الأحوال . وأقدم هذه القبور تلك التى يرجع تاريخها إلى عهد الملكة حتشبسوت تحتمس (حوالى ١٤٥٠ ق.م) كشفتها البعثة الاسكندنافية فى منطقة دبيرة فى شمال السودان ، وتنتمى هذه القبور إلى أخوين : تحوت حوتب وأمنمحات المولودين من أبوين نوبيين حسبما يدل عليه اسماهما ، وكان لهما ألقاب مصرية ، وإنما أيضًا لقب «كبير (منطقة) ته خت» ، وهذا اللقب «كبير» يمنح حسب التقاليد لأشخاص من أرومة ملكية ، بل يمنح أيضًا للملوك من بلاد أجنبية . ومقبرة تحوت حوتب ، الأخ الأكبر ، مزينة على طراز العاصمة الطيبية . أما مقبرة أخيه الأصغر فإنها أيضًا مصرية بالكامل ، وكل ما فيها من أشياء من صنع مصرى ممتاز .

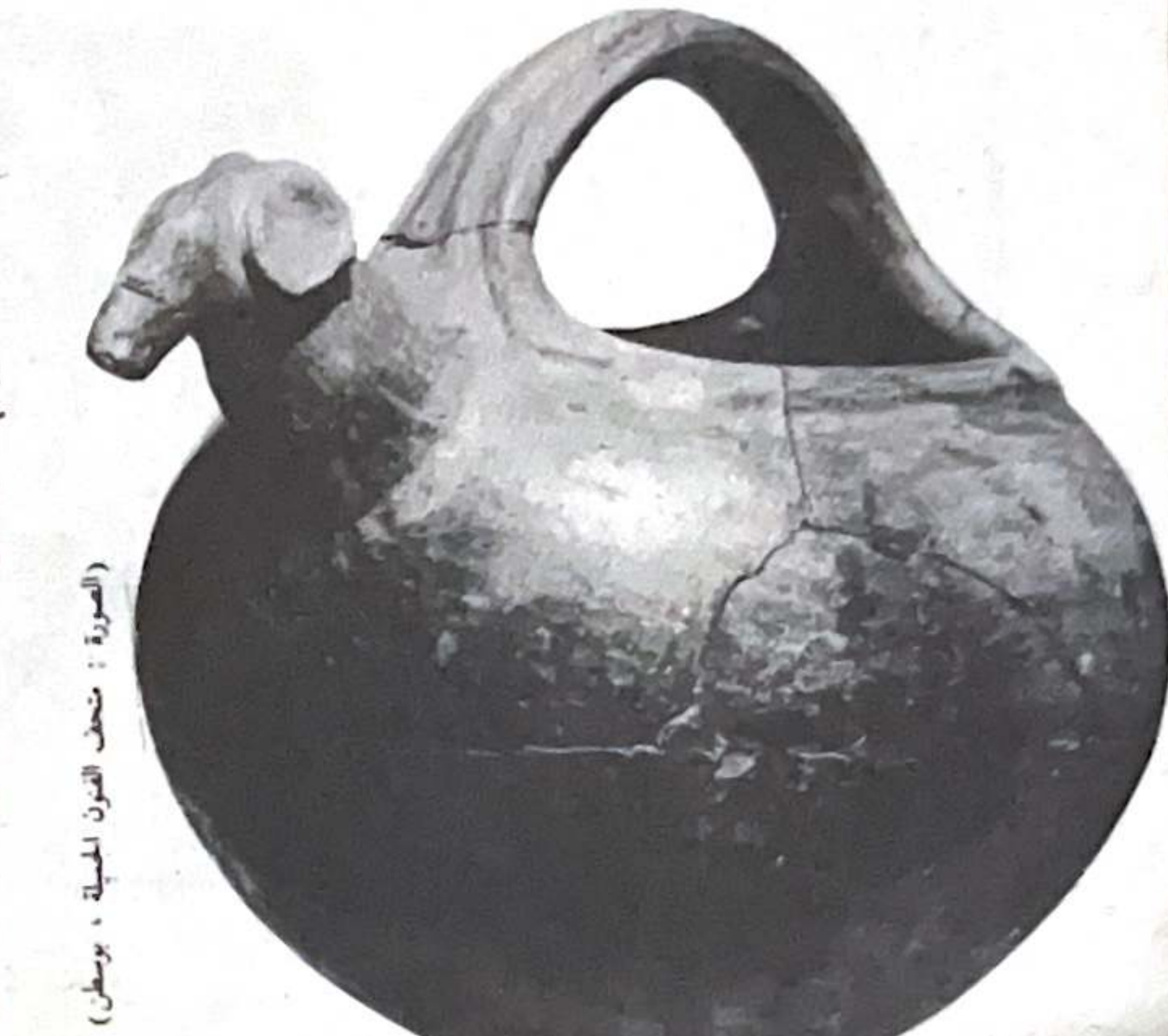
وهكذا فان المقابر ذات المظهر المصرى بشكلها ، والزخارف التى تزينها ، والأشياء الجنازية التى تحتويها ، تنتمى حسب النصوص الى أمراء نوبيين . ويبدو منطقيا فى هذه الأحوال أن ينسب إلى نوبيين المقابر التى هى فى جوهرها مصرية ، ولكنها تختلف عن النموذج المصرى التقليدى فى بعض التفاصيل .

هناك مثال ثالث له أيضًا دلالته : فالمعروف منذ زمن بعيد أن مقبرة آى ، نائب الملك ، وحاكم النوبة فى عهد توت عنخ آمون المشهور ، الموجودة فى طيبة (الأقصر حاليا) ، تحتوى على تصاوير تصف كيف كان

البقية ص ٧٠

(الصورة : متحف متروبوليتان للفنون ، نيويورك)

هذا المنظر هو جزء تفصيلى من النقش المصور قليل البروز والذى يزين مقبرة حوى نائب ملك النوبة فى عهد الفرعون توت عنخ آمون ، بالأقصر ، وهى طيبة القديمة عاصمة مصر الفرعونية . ويمثل المنظر تقديم الجزية النوبية إلى ملك مصر . ونلمح بين قرون البقر عددًا من رؤوس الزنوج يعلو كلا منها ريشة . وينتهى كل قرن بيد أو بالأحرى بقفاز ، ممدود فى حركة تعبد .

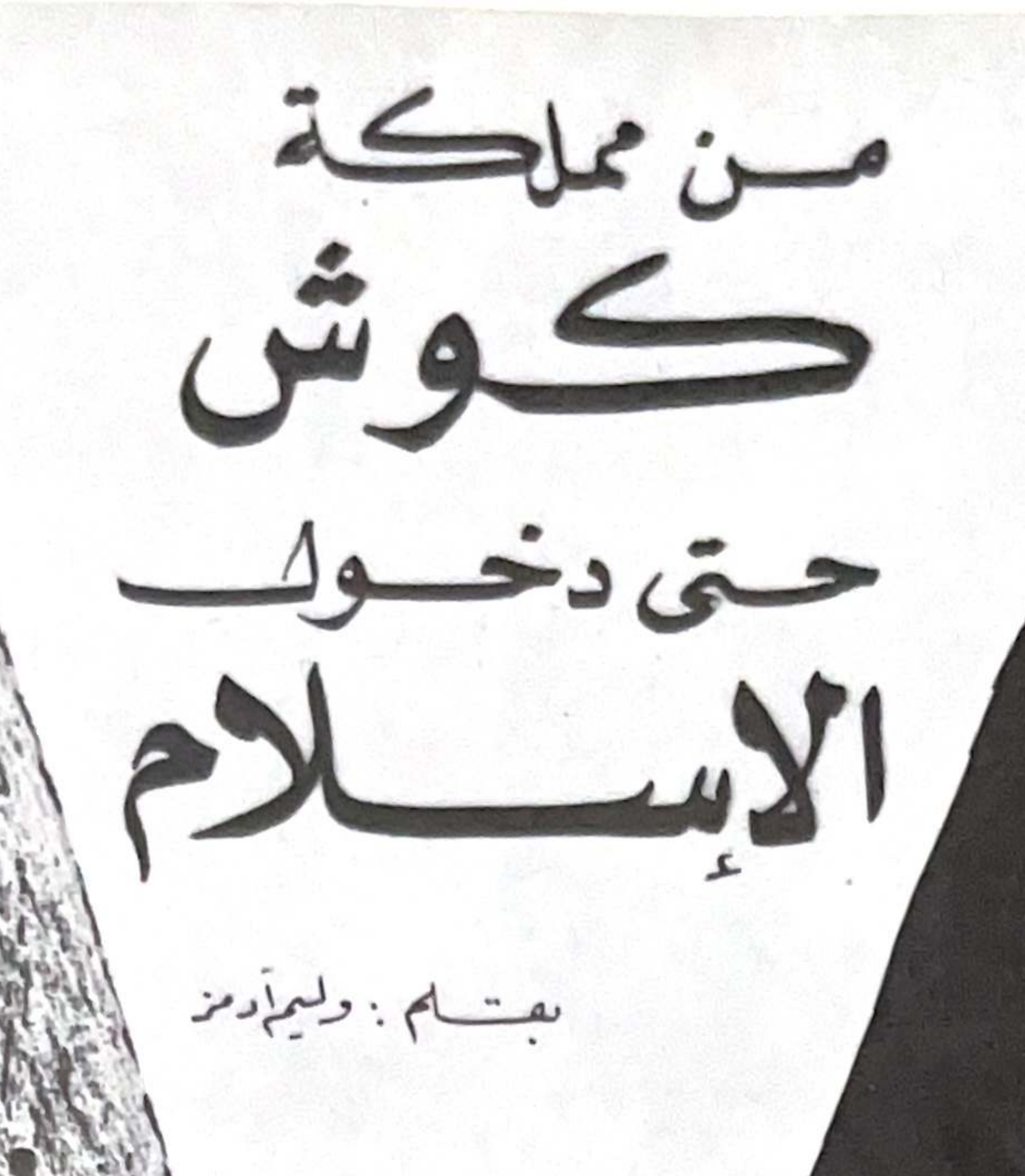


(الصورة : متحف الفنون الجميلة ، بوسطن)

ينتمى هذا الوعاء الفخارى إلى ما يسمى «بثقافة كرما» المعاصرة لثقافة «المجموعة ج» ، ويبلغ ارتفاعه ٢٢ سم ، ويرجع تاريخه إلى ما بين ١٧٥٠ و ١٥٥٠ ق . م . وقد أطلق جورج ريزنر الأثرى الأمريكى الذى اكتشف هذا الوعاء اسم «أباريق الشاى» على الأوانى الفخارية من هذا النوع . وفم الوعاء ، المزين برأس كبش له قرون ملتفة ، هو من طراز أوعية كرما الفخارية التى كان للكبش شأن كبير فى حضارتها . ومن المعتقد أن التماثل بين الكبش وبين الإله آمون الذى ظهر بمصر فى عهد الأسرة الثامنة عشرة يرجع فى أصله إلى النوبة .

من مملكة كوش حتى دخول الإسلام

بقلم : وليم آدمز



كانت المنطقة الواقعة بين الجندلين الأول والرابع من نهر النيل خاضعة لأكثر من خمسة قرون (منذ عام ١٥٨٠ ق.م حتى عام ١٠٠٠ تقريبا ق.م) لحكام مصريين. وكانت موارد البلد تستخدم في الوفاء بمطالب [illegible] الفراعنة في مصر. وحين عاد [illegible] إلى بلادهم تركوا وراءهم نوبة ممصرة [illegible] «مملكة كوش». واستطاع سكان كوش [illegible] أن يحافظوا على حضارة فريدة في نوعها ، وأن يؤدوا دورًا متفوقًا على الصعيد العالمي.

ولم يتيسر للتاريخ ولا لعلم الآثار أن يعطيا صورة واضحة للأحداث التي جرت في النوبة خلال القرون التي عقبت رحيل المصريين عنها. ومع ذلك يبدو أن عبادة آمون رع وسائر الآلهة المصرية استمرت [illegible] في معابد مدينتي نبتا وكاوا ، إما بمعرفة مصريين [illegible] وإما بواسطة كهنة محليين خلدوا التقاليد المصرية. وفي عام ٨٠٠ ق.م ظهرت أسرة حاكمة محلية يبدو أنها تحالفت مع كهنة

في حوالي عام ١٠٠٠ ق م انتهت السيادة المصرية على النوبة وهي التي كان معروفا آنئذ باسم «كوش». غير أن ملوك النوبة استمروا لقرون طويلة في اتباع التقاليد الموروثة من مصر [illegible] أنهم كانوا يدفنون تحت اهرامات. ويقابله صورة هرمين في جبانة ملكية في كوش قريبين أحدهما من الآخر لدرجة أن قواعدهما متلاصقة

(الصورة : جورج جيرستر - رافو - باريس)



الرأس البرونزى (الصورة اليمنى) ويمثل رأس الملك «شبكا» أحد ملوك النوبة الذين حكموا النوبة ومصر من ٧٥١ إلى ٦٦٣ ق.م ، وكانوا فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين . الأسرة «الأثيوبية» . وثمة اثنان من «الأورال» وهى تصويرات منمقة للصل (أو الكوبرا) المقدسة ، رمز السلطة العليا ، يلتفان حلقاتهما على الرأس من الجبهة حتى الرقبة . ويرمز القرنان «الأورال» المصرية ، بالطاقية التى هى من خصائص الملكية النوبية ، يرمز إلى السيادة المزدوجة على النوبة وعلى مصر .

(الصورة : متحف الآثار الأهلى ، أثينا)



هذا القرط الذهبى الدقيق الصنع ، على شكل رأس كبش (من القرن السادس قبل الميلاد) وجد فى جبانة ميروى (انظر الصورة بالصفحة السابقة) . ولحمل جبهة الكبش ثعبانين (اورال) ، أما الرأس فعلى هيئة قرص الشمس . وكانت هذه الأقراط جزءًا من شارات ملوك كوش المنحدرين من سلالات من الرعاة . ويرتبط اختيار موضوع الزخرف هذا بما اعتاده النوبيون القدامى من توقير الكبش .

وصف اخصائى حديث الملك الكوشى طهرقا (الأسرة ٢٥ ، من ٦٩٠ إلى ٦٦٤ ق.م) بأنه «شخصية قوية ، ومن كبار مشيدى الصروح ، يكاد يماثل رمسيس الثانى» . وأعلى ، وإلى اليسار صورتان مختلفتان بدرجة عجيبة للملك طهرقا . فالرأس الأسود ، من الديوريت ، الظاهر بعاليه ، له ملامح كوشيه ، ولكنه نحت طبقًا للنماذج الملكية المصرية . وإلى اليسار ، صورة لأبى هول بوجه طهرقا ، منظور من أمام ، طوله ٧٥ سم ومنحوت من جرانيت ، يبدو بوضوح على نمط سودانى .

آمون رع . والواقع أنه حدث بعد قليل أن طلب كهنة آمون من أحد أمراء النوبة ، ويدعى «كشتا» ، أن يستولى على تاج الفراعنة القديم فى مصر نفسها .

وعلى ذلك مضى كشتا إلى طيبة ، عاصمة مصر القديمة ، حيث منح ألقاب فرعون وسلطته . وليس هناك بخلاف هذه الرحلة ما يدل على أنه حاول أن يمارس الحكم فى مصر . ومع ذلك ففى غضون الجيل التالى دعى زعيم نوبى آخر ، اسمه «بى» أو «بيعنخى» للقدوم لنجدة الأقاليم التى ضرب عليها الحصار فى مصر . وعلى عكس سلفه لم يقنع بيعنخى بتخليص طيبة من الخطر الذى كان يتهددها ، ولكنه طارد الغزاة ، وردهم حتى شمالى مصر ، وسحقهم الواحد تلو الآخر ، وأعاد توحيد البلاد تحت سلطانه . وحكم النوبيون مصر طوال الثمانى والثمانين سنة التالية (من ٧٥١ إلى ٦٦٣ ق.م) ، كما حكموا أيضًا مملكة كوش باعتبارهم فراعنة الأسرة الخامسة والعشرين ، المسماة بالأسرة «الأثيوبية» .

وانتهت سيطرة النوبة على مصر عندما غزاها الأشوريون فى عام ٦٦٣ ق.م. وما أن عاد «فراعنة الجنوب» القدامى إلى بلدهم حتى استمروا فى الحفاظ على التقاليد السياسية والدينية والفنية الخاصة بمصر القديمة طوال ألف سنة أخرى ، حتى القرن الرابع الميلادى ، وشيدوا معابد على الطراز المصرى لآلهة هذا البلد (وكذا لبعض آلهتهم) ، وأشادوا بأعمالهم الباهرة (على الأقل فى القرون الأولى التى عقبت عودتهم) فى نصوص هيروغليفية ، ودفنوا موتاهم فى أهرام . وقد أقاموا العاصمة الملكية أول الأمر فى مدينة «نباتا» المصرية القديمة بالقرب من الجندل الرابع ، ثم نقلت العاصمة فيما بعد إلى مدينة «مروى» على مسافة بعيدة إلى الجنوب على نهر النيل .

وكان من أثر فتح الاسكندر المقدونى مصر فى عام ٣٣٢ ق.م أن جذب أنظار العالم القديم كله إلى مملكة كوش (أو «أثيوبيا» كما يسميها كتاب التاريخ القديم) . وتوثقت علاقات دبلوماسية بين المملكة المروية النوبية وبين أسرة البطالمة ، وهى الأسرة اليونانية التى تولت حينئذ مقاليد الحكم فى مصر . وفى غضون القرون التالية ذهب العديد من الدبلوماسيين والتجار اليونانيين والرومان إلى مدينة مروى ، شبه الأسطورية ، الغائرة فى قلب إفريقية .

وقد كشف علم الآثار أن مروى كانت فى أيام عظمتها مكانا رائعًا ، وأحصى بين ما تضمه من عمائر من حجر وآجر أكثر من ستة معابد ، وقصران كبيران على الأقل ، وحمامات من الطراز الرومانى . ولا يفوق معبد آمون من حيث أبعاده سوى نظيره فى طيبة بمصر ، وعلى بعد ثلاثة كيلو مترات تقريبًا شرقًا يقوم صف من الأهرام الحجرية يدل على مقابر ملوك كوش . وفى السهوب الممتدة فى داخلية البلد ، جنوبى العاصمة وشرقيها ، كانت مدن مصورات ، ونجعة ، وواد بناجة ، فى مثل روعة مروى على وجه التقريب .

واتسمت بداية السيادة الرومانية فى مصر ، عام ٣٠ ق.م ، بأعمال عدوانية على طول الحدود التى تفصل بين الأمبراطورية الرومانية وبين النوبة ، ثم عقدت معاهدة فى عام ٢١ ق.م بين الدولتين افتتحت عهدًا من روابط الصداقة استمر زهاء قرون ثلاثة .

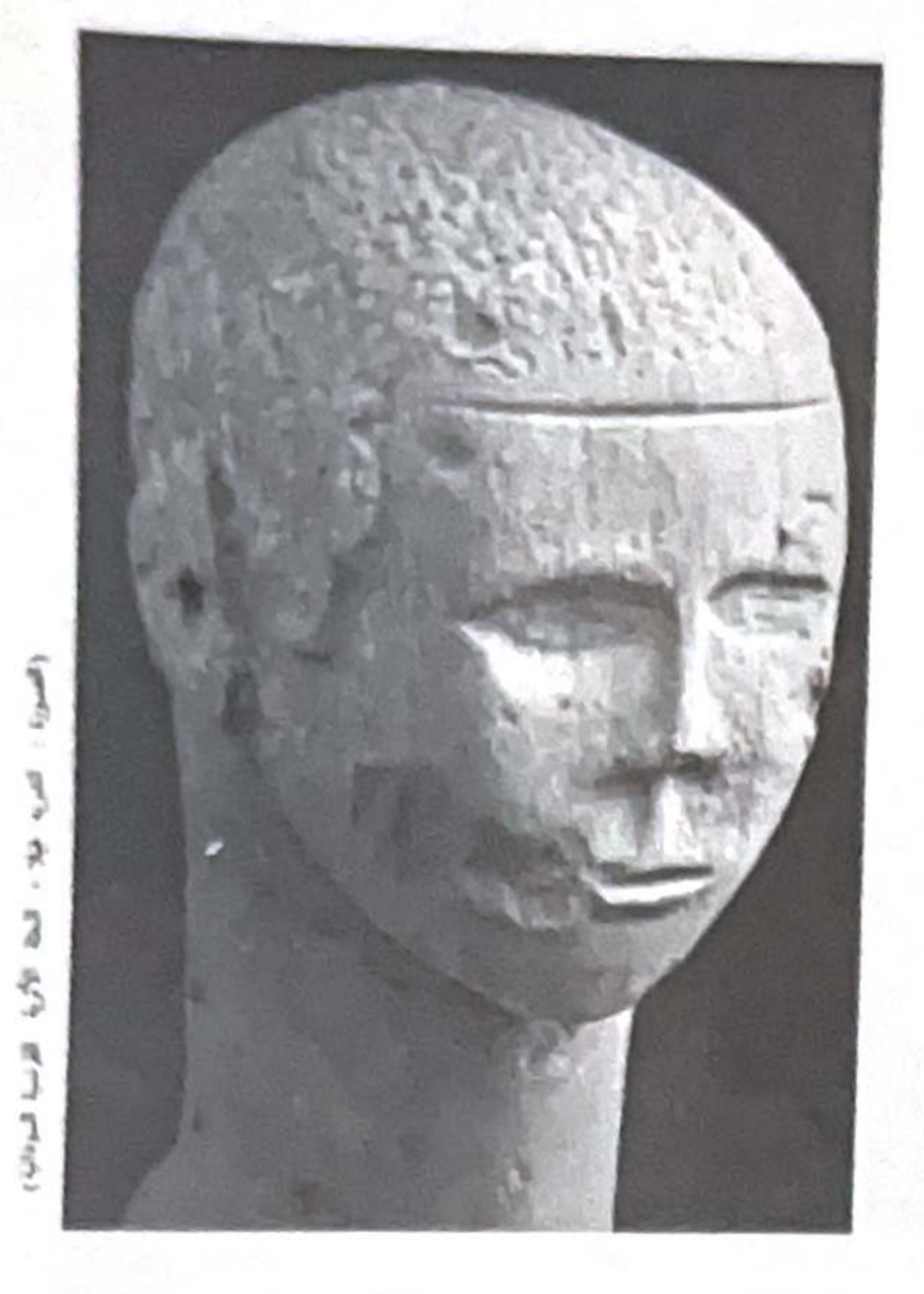
وكانت القرون الأخيرة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية عصرًا تكتنفه الانقلابات والهجرات فى شمال أفريقية ، وكذا فى أوربا وآسيا ، وأصبحت مملكة كوش التى مضى على نشأتها أكثر من ألف سنة مهددة من الشرق ومن الغرب بقبائل بدوية همجية : البلمبين ، والنوباويين .

وجاء تهديد خطير آخر من دولة جديدة : من مملكة أكسوم فى جبال الحبشة . وفى عام ٣٥٠ الميلادى زحف إزاناس أحد ملوك أكسوم صوب نهر النيل بقصد إخضاع مملكة كوش التى كانت تحتضر ، ولكن سبقه إليها القبائل البربرية النوباوية التى نهبت مدينة مروى وداخلية بلاد المملكة المروية ، وقضت على أسرتها الحاكمة القديمة . ويبدو أن تقاليد الفراعنة قد زالت مع آخر الملوك المرويين فى القسم الجنوبى من مملكة كوش .

أما القرنان التاليان فإنهما يتضمنان فترة غامضة لا نملك بشأنها أى وثائق أثرية أو معلومات تاريخية ذات أهمية . بيد أنه فى أقاليم الشمال ، عند حدود مصر الخاضعة للسيادة الرومانية ، استمرت التقاليد الفرعونية زمنا أطول فى مملكة بلانة التى عرفت بالتالى باسم «نوباتية» .

وقد وصلتنا أغلبية المعلومات التى نعرفها عن هذه المملكة من أضرحة ملوكها الثلينة فى جبانات بلانة وقسطل المتاثلة بالقرب من الحدود الحالية بين مصر والسودان . وإنا لنجد هناك أدلة تثبت استمرار عبادة الإلهة المصرية إيزيس ، ودوام استخدام بعض الشارات

وليام آدمز : امريكى ، وهو استاذ الانثربولوجى بجامعة كينتاكى وخلال الخمسينات كان يعمل مديرًا لاعمال التنقيب وانقاذ الآثار فى جلين كانيون على نهر كلورادو . وقد دعته اليونسكو والحكومة السودانية للمعاونة فى عملية انقاذ آثار النوبة . وفى الفترة ما بين عام ١٩٥٩ ـ ١٩٦٦ كان يعمل لحساب مصلحة الآثار السودانية وقام بتخطيط وتنفيذ الكشف عن الآثار بجانب التنسيق لأعمال ١٤ بعثة أثرية أخرى . وقد قام بتأليف كتاب هام له بعنوان «النوبة طريق إلى أفريقيا» وطبعة آلن لان فى لندن عام ١٩٧٧ .



(الصورة : اندريه فيلا ، البعثة الأثرية الفرنسية السودانية)

(الصورة العليا رقم ٥) هذا الرأس من حجرى رمل ، بفم صغير ، ووجه مدبب ، وشعر مجعد ، عمل فى نادر ، وكطفة جنازية نوبية «ميروية» نسبة إلى «مروى» عاصمة نوبة الكوشية لأكثر من ستمائة سنة حتى القرن الرابع الميلادى . هذا الرأس ، بالحجم الطبيعى تقريبا ، اكتشفه فى قبر طفل فى جهة «الأمير عبد الله» البعثة الأثرية الفرنسية السودانية

(الصورة ٤ : الكبتس فوروتنسوف ، اليونسكو ـ المتحف الوطنى ، لندن)

الفرعونية التى اتخذها ملوك بلاته .

كان دخول المسيحية فى النوبة فى منتصف القرن السادس نقطة تحول فى مصير هذا البلد . ويفترض المتخصصون فى تاريخ الكنيسة أنه كان فى النوبة فى ذلك العصر ثلاث ممالك مستقلة : نوباتية فى الشمال ، والمقرة فى المنطقة بين الجندلين الثالث والرابع على النيل ، وعلوة عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض . وتم تحول هذه الممالك الثلاث إلى المسيحية قبل نهاية القرن السادس ، وقد ثبت صحة هذه الواقعة من الناحية الأثرية بمظهر العديد من الكنائس ، وبتغيير مفاجىء طرأ على طقوس الدفن ، نجدها فى النوبة كلها فى هذه الآونة .

وبعد انقضاء زهاء قرن من الزمان انضمت مملكتا الشمال (مقرة وعلوة) إحداهما إلى الأخرى تحت حكم ملك واحد اتخذ مقرا له فى مدينة دنقلة القديمة فى إقليم مقرة . غير أن أقليم نوباتية القديم ظل محتفظا باسمه وهويته ، وكان يحكمه نائب ملك يسمى «رئيس أبرشية نوباتية» .

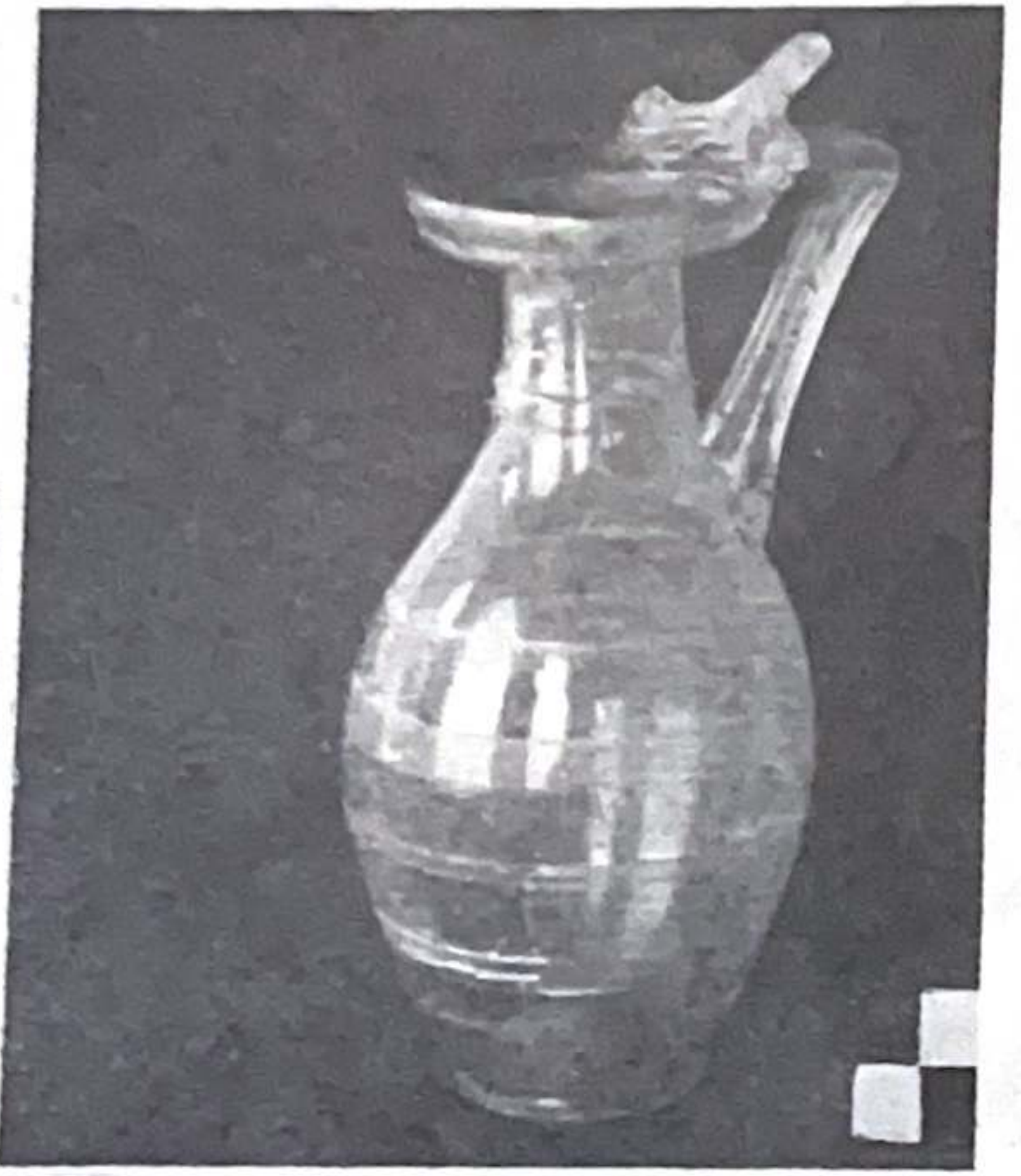
ولم ينقض قرن على دخول المسيحية بلاد النوبة حتى فتحت مصر جيوش الإسلام . وبقى مجموع السكان المصريين زمنا طويلا على الدين المسيحى ، واستمرت الكنيسة القبطية الوطنية مزدهرة فى ظل السيادة العربية . وكان مسيحيو النوبة يتبعون هذه الكنيسة المصرية الوطنية ، ويعين بطريرك الإسكندرية أساقفتهم ، وكان الكثير من هؤلاء الأساقفة مصريى الجنسية .

وما أن تم للعرب فتح مصر حتى سعوا إلى ضم النوبة إلى أملاكهم ، فشنوا عليها حملتين متميزتين فى عام ٦٤٢ وعام ٦٥٢ كان نصيبها الفشل ، ومن ثم عقد النوبيون مع حكام مصر معاهدة «البقط» كفلت سلامة الأقليم النوبى واستقلاله السياسى للأجيال القادمة .



اشتهر الحرفيون النوبيون فى العصر الميروى بصنع أوان خزفية مزينة بأشكال غريبة . فهذا الإناء الفخارى ، الأحمر المصقول ، المزين بزخارف بيضاء وسوداء (من القرن الثانى إلى الثالث بعد الميلاد) وجد فى كارانوج بالنوبة المصرية . أما الزخارف النباتية المنطلقة الأسلوب المرسومة على منكب الإناء فإنها شارة المصنع الأصلى ، وأما بطن الإناء فإنه مزين بصور ظباء ونباتات وعصافير . وقد عثر على أعمال أخرى من صنع الفنان نفسه المسمى «مصور الظباء» .

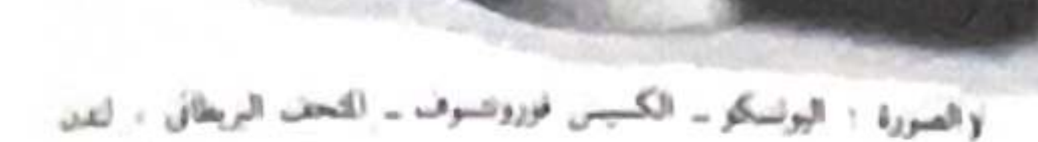
(الصورة : هيئة الآثار المصرية ، القاهرة)



(الصورة : اندريه فيلا ، البعثة الأثرية الفرنسية السودانية)

هذا الإناء الزجاجى (القرن الأول إلى الثانى بعد الميلاد) له جدار يقل سمكه عن ملليمتر واحد . والمعتقد أن عددًا كبيرًا من الزجاجات ، والقوارير ، والكئوس التى وجدت فى المقابر النوبية الميروية قد استوردت من مصر ومن بلاد نائية .

هذا السراج البرونزى ، ذو المقبض فى شكل رأس حصان ، قد اكتشف فى قبر بقلعة قصر ابريم إبان حملة التنقيب فى عامى ١٩٦١ ، ١٩٦٢ ، ويقدر أنه يرجع إلى القرن الثانى أو الثالث الميلادى ، ويشهد بتأثير هلينى واضح ، ولكنه صنع بلاشك فى النوبة .



(الصورة : اليونسكو ـ الكسيس فوروتسوف ـ المتحف البريطانى ، لندن)



(الصورة : متحف القاهرة)

(الصورة : هيئة الآثار المصرية ، القاهرة)

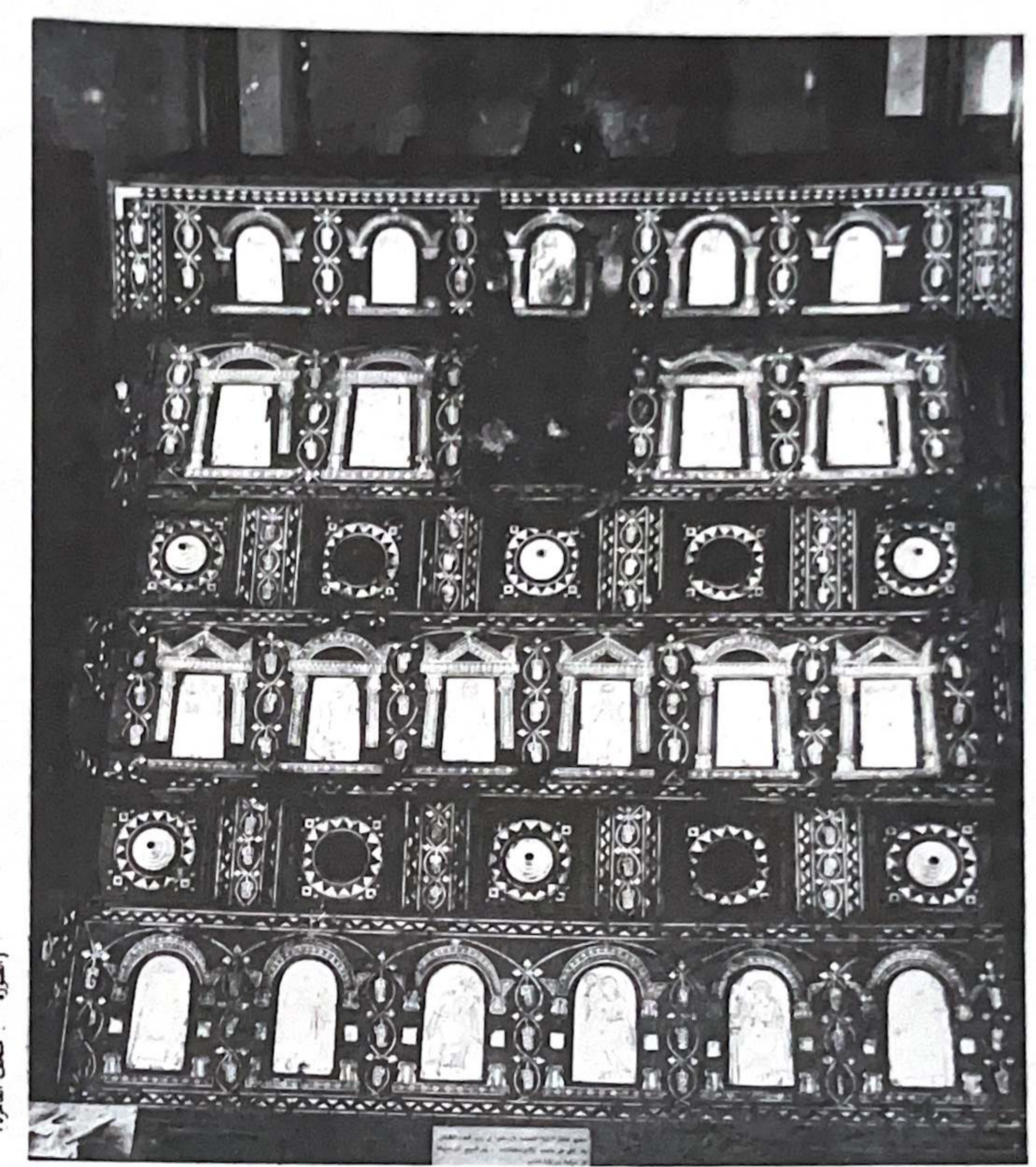
هذا التاج الفضى ، وهذا السراج البرونزى على شكل رأس إنسان (بأعلى) ، وكذا هذا الصندوق الخشبى العجيب المطعم بالعاج (بأسفل) أجزاء من كنز اكتشف منذ حوالى خمسين سنة فى جبانة ملكية فى بلانة على ضفاف النيل . ويرجع تاريخ هذه التحف إلى القرنين الرابع والخامس ، فى العصر الذى كانت فيه بلانة مركزًا لمملكة مزدهرة فى النوبة الشمالية عند الحدود المصرية الرومانية . وعلى التاج المرصع بوفرة من الأحجار شبه الثمينة والزجاج الملون ، يقف خمس حيات (اورال) مجنحات ، مما يثبت أن التقاليد الفرعونية القديمة مازالت باقية فى فترة تاريخية كانت فيها النوبة متأثرة تأثرًا قويًا بالنفوذ الهلينى البيزنطى . أما الصندوق (من أواخر القرن الرابع) فإنه يشبه بشكله واجهة منزل ذى أربعة أدوار . وعلى الصفائح العاجية تمثل الآلهة اليونانية والمصرية ، وبخاصة بان ، وزيوس ، وافروديت ، وبيس الإله المصرى القزم .

وإذ أمست النوبة فى حماية المعاهدة «البقط» ، وانتعشت بحماسة جديدة نابعة من عقيدتها المسيحية الحديثة ، فإنها خبرت فى العصر الوسيط عهدًا ذهبيًا جديدًا من السلم والرخاء ، وازدهر الفن الدينى ، والأدب ، والعمارة ، وعرضت خليطًا من التأثيرات القبطية والبيزنطية إلى جانب عناصر وطنية بحتة . وفى دنقلة انتظم البلاط حسب الأنموذج البيزنطى ، مثله مثل المنشآت الملكية فى النوبة الشمالية . وازدهر كل من المقرة والعلوة بفضل البضائع الأفريقية المرسلة إلى الممالك العربية التى تشرف على البحر المتوسط .

وكان من أثر الحروب الصليبية التى استمرت مئتى سنة أن ولدت نوعا من الاقطاع العسكرى الذى تجلت آثاره بصورة واحدة فى كل من أوربا والشرق الأوسط وشمال أفريقية . وبلغت هذه الظاهرة أوجها فى مصر عام ١٢٥٠ بقيام الأسر الحاكمة المملوكية ، وأدت فى النوبة إلى سلسلة متوالية من المعارك بين الأسر الحاكمة أضعفت الممالك المسيحية ثم قضت عليها ، وأتاحت مجالاً ملائمًا لتدخل المماليك .

وجاءت الطعنة التى قضت على ملكيات العصور الوسطى على أثر الهجرات التى قام بها إلى السودان جموع من البدو العرب الذين طردهم المماليك من مصر بإجراءات قمع قاسية . وفى البداية تحرك البدو العرب صوب الجنوب عبر التلال التى تمتد على طول ساحل البحر الأحمر ، ثم انتشروا بالتدريج صوب الغرب حتى وادى النيل وتجاوزوه ، فغزوا الممالك المسيحية المستضعفة وخربوها . وفى المقرة والعلوة انهار فى حوالى عام ١٥٠٠ الميلادى آخر ما تبقى من آثار السلطة المركزية والكنيسة المسيحية المنظمة .

ولسنا نملك معلومات كافية عن أحداث النوبة خلال القرون التى عقبت تدمير ممالك العصور الوسطى . غير أنه بعد انقضاء قرنين أو ثلاثة قرون دخل شمال السودان كله فى دين الإسلام . وعندما فتح محمد على باشا مؤسس الدولة المصرية الحديثة السودان فى عام ١٨٢١ وجد هذا البلد كله موحدًا فى ظل الإسلام ، ولو أنه كان من الوجهة السياسية منقسمًا إلى أكثر من اثنتى عشرة إمارة صغيرة .



(الصورة : متحف القاهرة)

الممر النوبي لنهر النيل

بقلم : ولـيـم آد مـز

أدى النوبيون منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة دورًا في كل الحركات الحضارية الكبرى التي ازدهرت على سواحل شمال أفريقية : الحضارة المصرية القديمة ، الحضارة الكلاسيكية ، الحضارة المسيحية في العصر الوسيط ، والحضارة العربية . وقد أبدى هذا الشعب ولاء شديدًا لكل غزاته المتعاقبين . وعاشت تقاليد الفراعنة وكذا تقاليد مسيحية العصر الوسيط في النوبة زمنًا أطول مما عاشته في مصر نفسها ، ولم يزل النوبيون حتى وقتنا الحاضر معروفين بتمسكهم بدينهم الإسلامي .

كانت النوبة ولم تزل فقيرة في الموارد الزراعية ، ولم يكن في وسع اقتصادها الزراعي أن يفعل لها أكثر من أن يغذي سكانها القليل العدد لحسن الحظ . وكان مصدر ثروة النوبيين (كمصدر ثروة كل الحضارات والامبراطوريات الأفريقية اللاحقة) يأتي من وفرة المنتجات الغريبة المختلفة التي يشتهيها دواما شعوب سواحل البحر المتوسط ، كالذهب ، وجلود حيوانات المناطق الاستوائية ، وريش النعام ، والعاج ، والأبنوس ، والبخور ، وكذا الرقيق الأسود . قصارى القول أن النوبة كانت أولى الأمبراطوريات التجارية الأفريقية الكبرى وأطولها عهدًا ، وتعاقب عليها فترات من اليسر والعسر ترتبط بعض الشئ بطلب شعوب البحر المتوسط للمنتجات الترفية الغريبة ــ كان هذا الطلب بوجه عام يزداد في أوقات السلم والرخاء ، ويتناقص في أوقات الحرب وعدم الاستقرار السياسي . كذلك كانت ثروة النوبة تعتمد بصورة ملموسة على وجود أو عدم وجود موردين يتنافسون في الأسواق .

وعلى مدى زهاء ثلاثة آلاف سنة ، منذ فجر التاريخ حتى القرون الأخيرة قبل ميلاد المسيح ، كان مجرى النيل هو الطريق التجاري المضمون الوحيد الذي يخترق العقبة المتمثلة في الصحراء ويربط داخلية أفريقية بساحل البحر الأبيض المتوسط . وكلما استدام هذا الوضع استمتع النوبيون سكان هذا الممر باحتكار حركة مرور السلع الأفريقية المتجهة صوب الشمال . وبفسر هذا الوضع المتميز إلى حد كبير رخاء مملكة كوش وطول عمرها . غير أن احتكار النيل قد تعرض فيما بعد لنشأة تجارة بحرية على البحر الأحمر .

ثم ازداد الوضع المتميز الذي كان للنوبة سوءًا باستخدام الجمل ونمو التجارة عن طريق القوافل التي تعبر الصحارى ، وأصبح الذهب والعاج والعبيد بضائع تستورد عبر الصحراء حتى المدن الساحلية ذات الموانئ بشمال أفريقية . وفي الداخل نشأت حضارات وامبراطوريات أفريقية جديدة : غانا ، ومالي ، وسنغاي ، وكانم برنو ، كأثر مباشر لهذه التجارة . غير أن الضربة القاضية على ثروة النوبة والأهمية الاستراتيجية التي كانت للقسم الأوسط من وادي النيل أتت على أثر انفتاح الملاحة البحرية بين أوربا وبين الساحل الشرقي الأفريقي ، ومع غينيا ، ذلك الانفتاح الذي استهل بالرحلات الاستكشافية التي قام بها البرتغاليون في القرن الخامس عشر . ولم يعد الطريق الطويل ، الخطر في بعض الأحيان ، الذي يمر بنهر النيل ، بقادر على منافسة الطرق البحرية الأوربية . وفي أواخر العصر الوسيط حل بالنوبة ركود جغرافي سياسي .

بأسفل نقش بارز من حجر رملي ، نحت في أوائل القرن السابع في عصر النوبة المسيحية ، وكان جزءًا من لوحة حائطية بكاتدرائية فرس . اكتشفته البعثة الأثرية البولندية (أنظر صفحة ٣٩) . وقد استعيرت فكرة الطائر ذي الرأس المدار جانبا من مصر ، حيث يظهر كثيرًا في تصاوير العصر المسيحي الأول .

(الصورة : ف . هنكل - جمهورية ألمانيا الديموقراطية - متحف وارسو الأهلي)

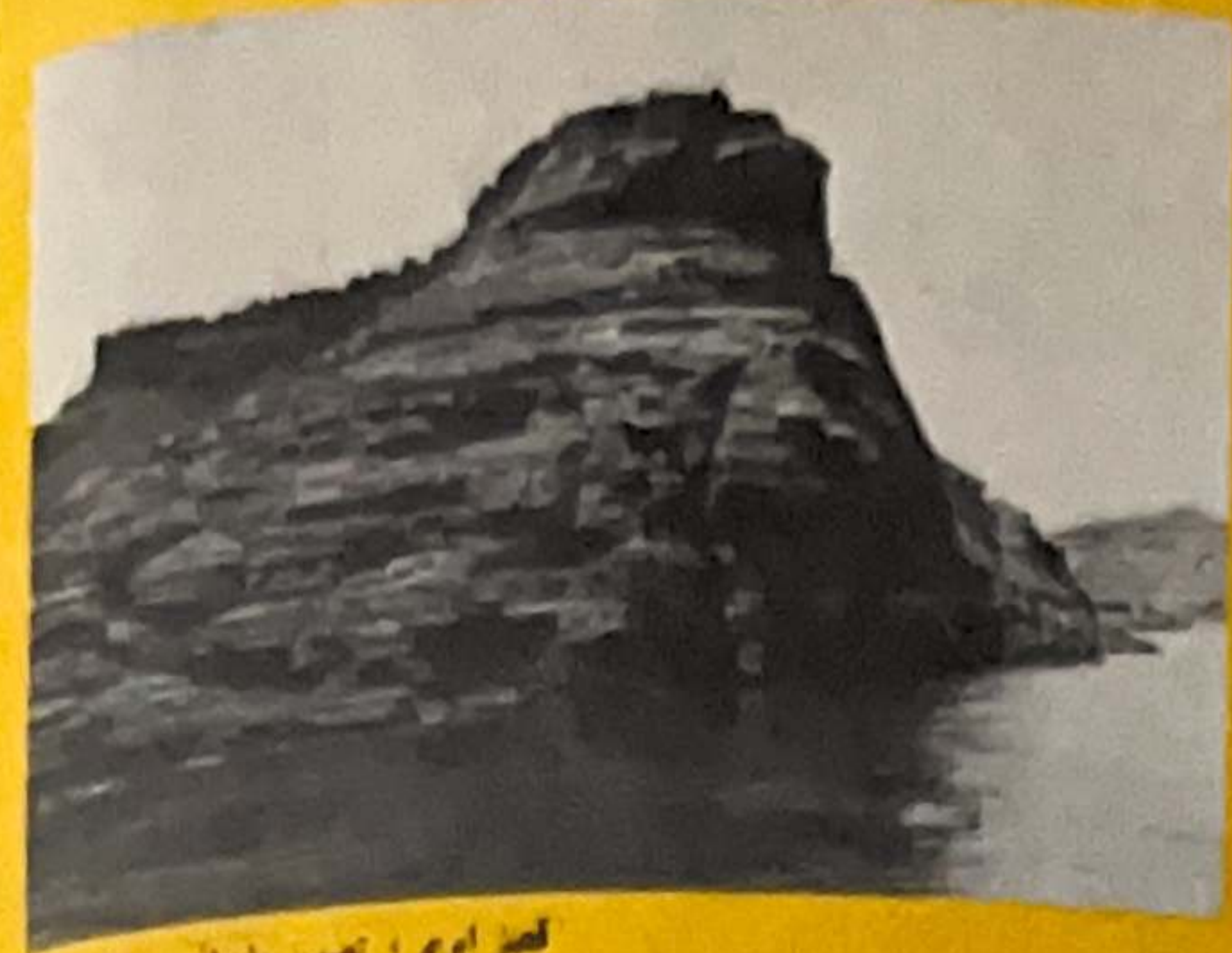


كانت مصر في عصور ما قبل التاريخ تعبد إلها له رأس صقر ، دخل فيما بعد في العبادة الاوزيرية ، باسم حورس ابن اوزيريس واخته وزوجته ايزيس . ويصور هذا التمثال القبطي من الحجر الرملي (ارتفاعه ٤١ سم) المنحوت بمصر في عصر متأخر (من القرن الخامس إلى السابع بعد الميلاد) حورس وهو يطعن بالخطاف ست قاتل اوزيريس ويبدو في صورة تمساح .

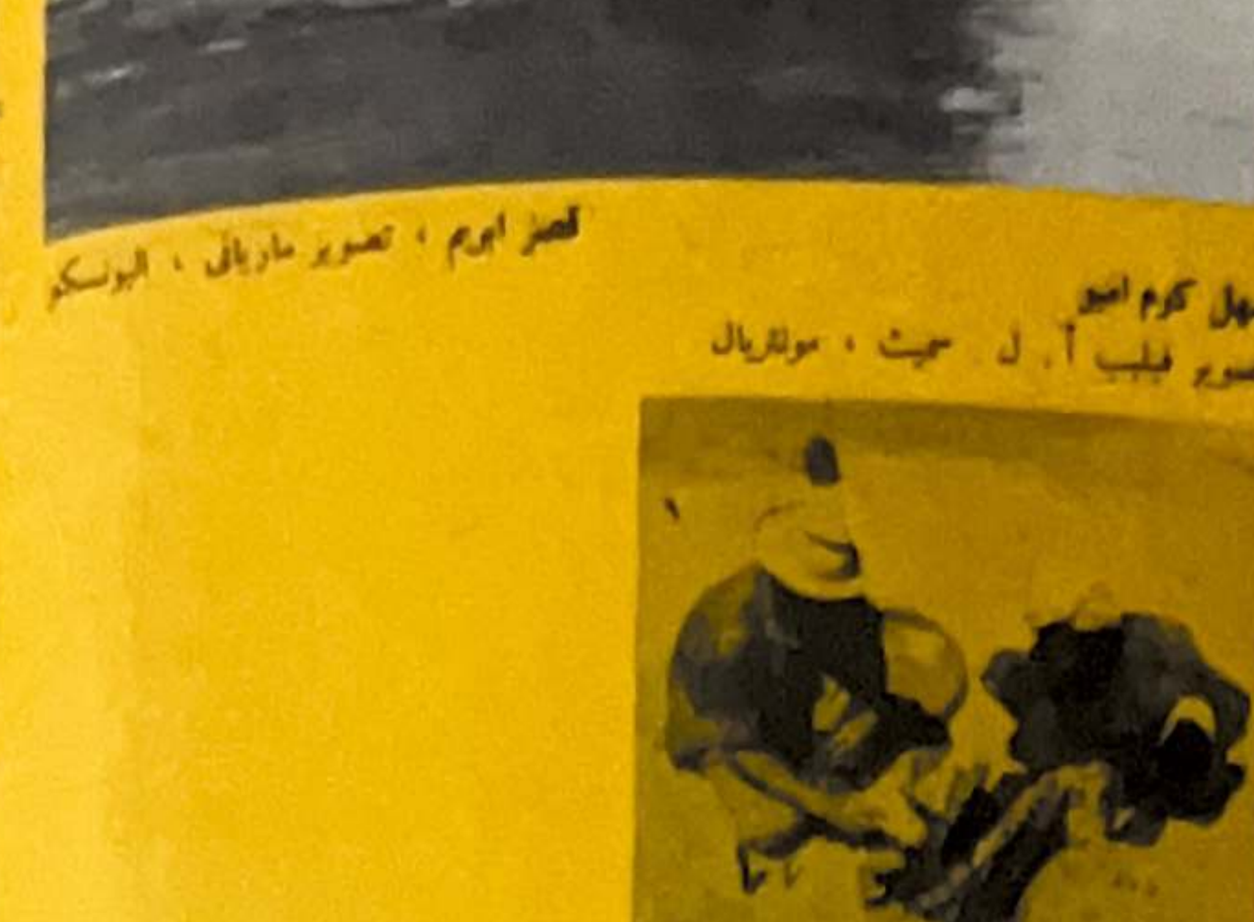
(الصورة : شوزفيل ــ متحف اللوفر ، باريس)



الحفريات الأثرية



قصر ابريم ، تصوير ماريانى ، اليونسكو

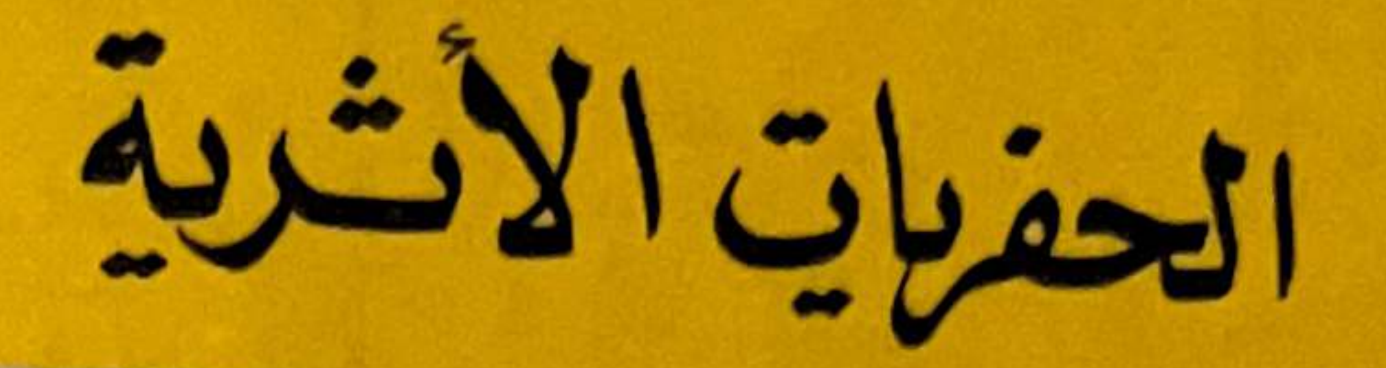


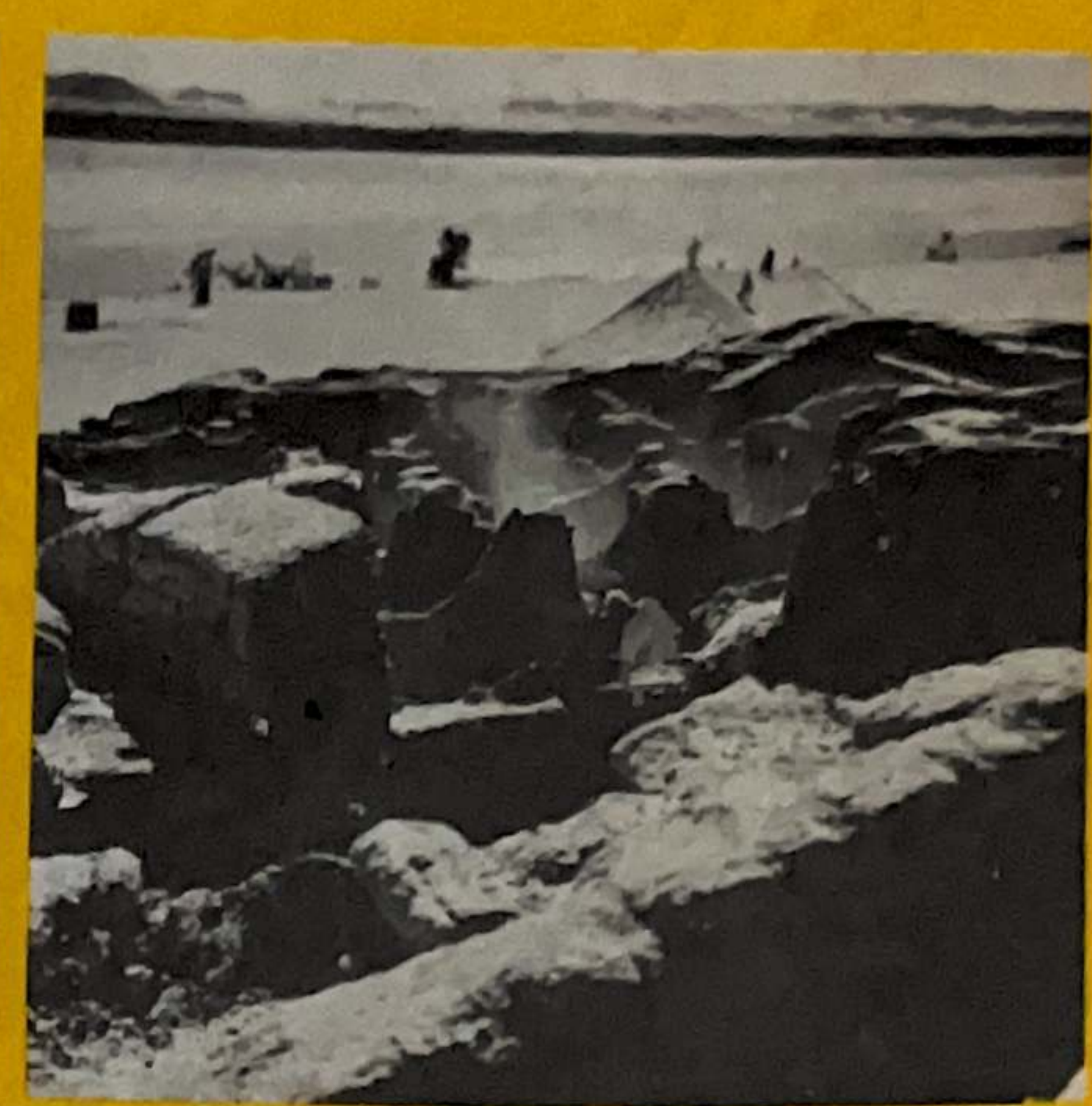
سهل كرم اميو

تصوير فليب آ. ل. حيث ، مونتريال



كرانيس ـ الصورة : معهد المصريات التشيكوسلوفاكى





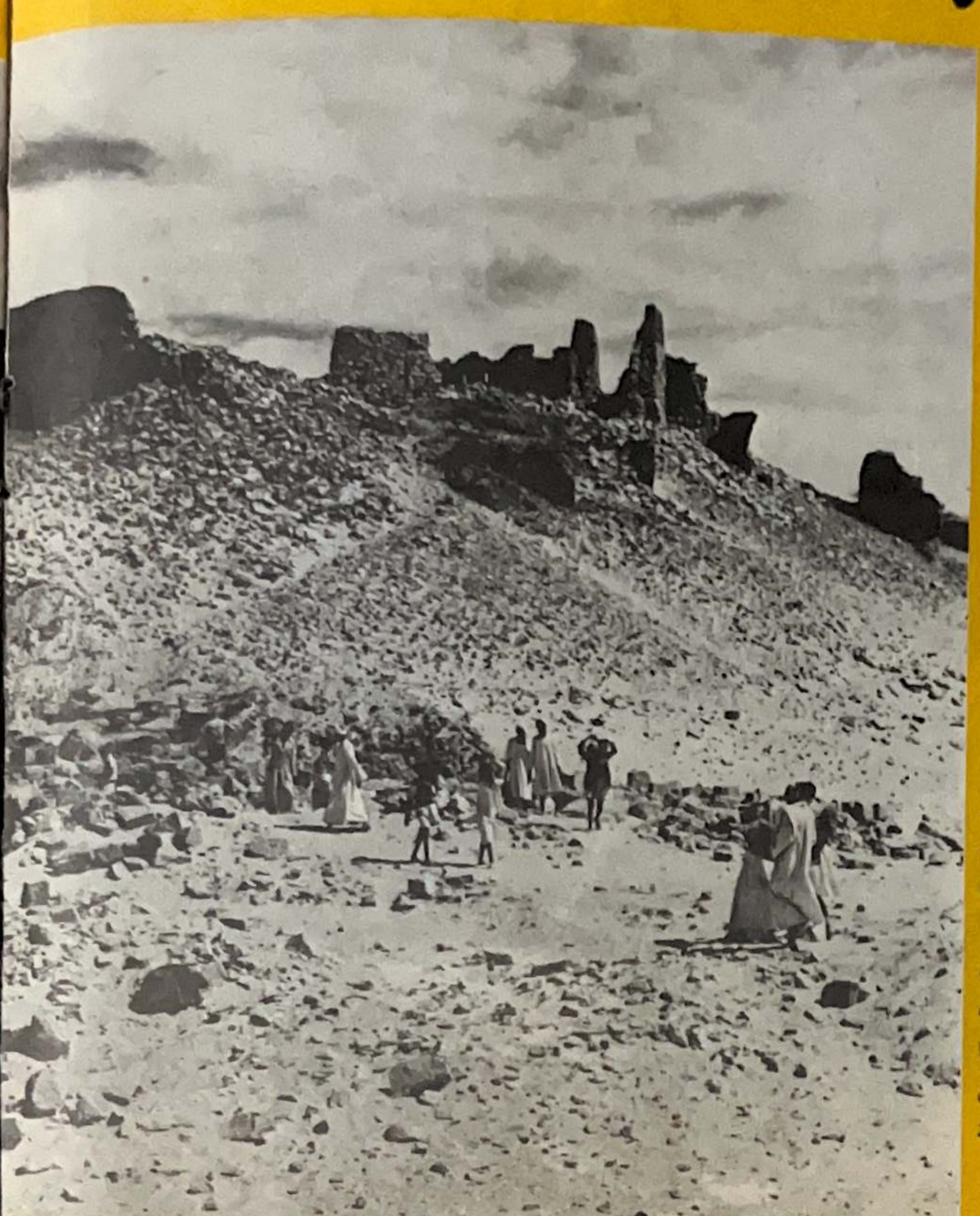
دبيرة غرب ـ الصورة : ريكس كيتنج ، باريس

على مدى خمسة الاعوام التى انقضت منذ اليوم الذى أطلق فيه (عام ١٩٦٠) المدير العام لليونسكو دعوته لصالح حملة دولية لإنقاذ مواقع النوبة وآثارها صار الإقليم الذى تغمره الآن مياه النيل أكبر ساحة عرفها التاريخ جرت فيها أعمال التنقيب الأثرية. وكان ثراء وتنوع الاكتشافات التى تمت كبيرين لدرجة تتطلب سنوات عديدة من الدراسة قبل أن يتسنى تقدير الأهمية التاريخية، والثقافية، والبشرية التى حظيت بها الحملة. وفى الصفحات التالية تقدم رسالة اليونسكو، فى شكل موجز للغاية، بعض عناصر التقارير الأولى التى قدمتها البعثات الأثرية. هذه اللوحة، رغم أنها غير كاملة، فإنها تعرض لمحة من النتائج الرائعة التى توصل إليها هؤلاء الرجال والنساء المتحمسون القادمون من بلاد كثيرة والذين كافحوا على مدى عقدين من الزمان، وفى ظروف شاقة فى الكثير من الأحيان لانقاذ جزء ثمين للغاية من التراث الثقافى النوبى والعالمى.

أسوان
كرتاسى طفة ـ تشيكو
بيت الوالى ـ سويسرة
كلابشة ـ ايطاليا
سابا جورا ـ ايطاليا
كوبان ـ ايطاليا
الدكة ـ الاتحاد السوفي
وادى العلاقى ـ الاتحاد السوفيتى
إخميندى ـ ايطاليا
عمدا ـ جمهورية ألمانيا
كروسكو ـ قصر إبريم ـ ايطاليا



فرس جنوب ـ الصورة : ريكس كيتنج ، باريس



حملة النوبة الدولية



قرس جنوب – الصورة : ريكس كيتنج . باريس

أضواء على البعثات الاستكشافية

عشرون عاما من الحفريات

البعثة : جامعة القاهرة
الموقع : عنيبة
المقرر : عبد المنعم أبو بكر

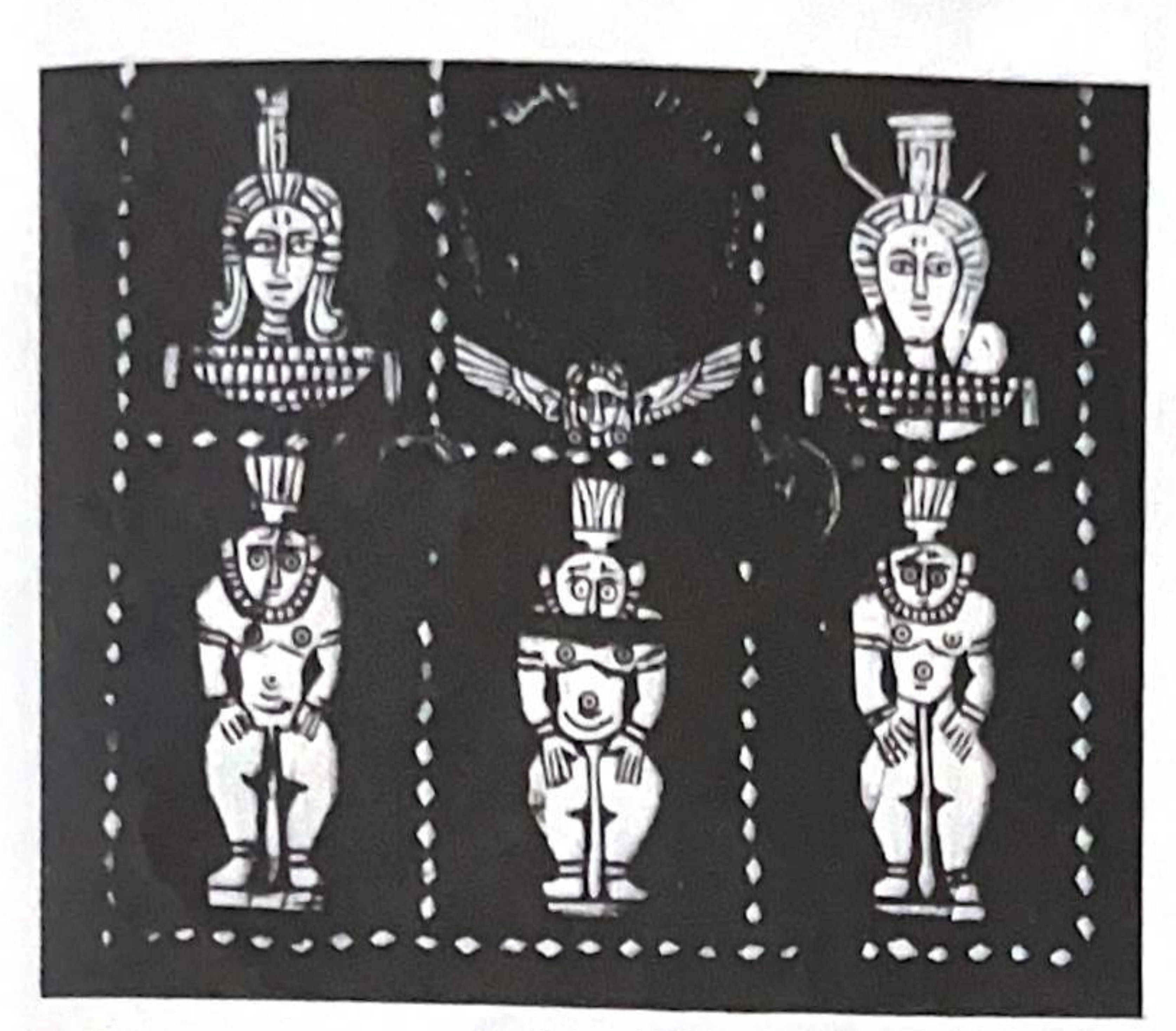
قبر بنوت

أجرت بعثة جامعة القاهرة خلال موسمى ١٩٦٠/١٩٦١ و١٩٦١/١٩٦٢ حفريات بمنطقة عنيبة، وأحصت كل النقوش التى يتضمنها قبر بنوت حاكم ميام (الاسم القديم لإقليم عنيبة) فى عهد رمسيس السادس، وذلك قبل أن ينقل القبر من مكانه ويعاد بناؤه بالقرب من الموقع الجديد لمعبد عمدا. حاولت البعثة أيضا أن تعثر على معبد الإله حورس، الذى نعرف أنه كان مقاما فيما مضى فى ميام، ولكن ضاع كل أثر له.

ألف قبر

اكتشفت البعثة على شريط من الأرض طوله ثلاثة عشر كيلو متراً يمتد بمحاذاة الضفة الغربية من النيل على جانبى قبر بنوت أكثر من ألف قبر تنتمى إلى مجموعتين مختلفتين. ويرجع تاريخ جبانة نجع الطاحونة إلى المجموعة أ وكانت الجثث عند اكتشافها محاطة بآنية من طين محروق من طراز كرما، وعقود، وجعارين. وتدل هذه الجعارين على أن سكان عنيبة فى هذا العصر كانوا على صلات وثيقة بملوك الهكسوس فى دلتا النيل. وثمة جعران منقوش عليه اسم أبو فيس ملك الهكسوس الذى سعى إلى التحالف مع النوبيين ضد أمراء طيبة الأقوياء.

أما المجموعة الثانية من القبور، وهى الأكثر قربا من عنيبة فإنها تنتمى إلى العصر المروى الثانى. وأجمل ماعثر عليه فى هذه المجموعة صندوق جوانبه مزينة بتغشيات من عاج تصور الإلهة حتحور والإله بس.



الصورة : تصوير بالعاج لحتحور وبس، على صندوق مروى.

(التصوير : مركز الوثائق بالقاهرة)

مصلحة الآثار السودانية
استطلاع جوى فوتوغرافى
تسجيلات أثرية
تقنيات تكميلية

حين بدأت حملة النوبة لم يكن فى النوبة السودانية استكشافات سابقة يمكن أن توفر معلومات أساسية شبيهة بالمعلومات الخاصة بمصر والمتوفرة من قبل. لذلك نظمت

جدول زمنى

النوبة	قبل الميلاد	مصر
ظهور المجموعة أ	٣٠٠٠	العصر الثينى (الأسرتان الأولى والثانية) مقابر سقارة الملكية
		الدولة القديمة (الأسر من الثالثة إلى السادسة)
	٢٥٠٠	هرم الجيزة الأكبر
		الفترة الأولى المتوسطة (الأسر من السابعة إلى العاشرة)
نهاية المجموعة أ		
ظهور المجموعة ج القلاع المصرية فى النوبة	٢٠٠٠	الدولة الوسطى (الأسرتان الحادية عشرة والثانية عشرة)
		الهكسوس فى مصر أمنمحات
		الفترة الثانية المتوسطة (الأسر من ١٣ - ١٧)
	١٥٠٠	الدولة الحديثة
امتصاص مصر المجموعة ج		(الأسر من ١٨ - ٢٠) أمينوفيس الثالث رمسيس الثانى
		العصر المتأخر (الأسر من ٢١ - ٣١)
	١٠٠٠	طهرقا (الأسرة ٢٥ النوباة الأثيوبية)
المملكة المروية	٥٠٠	
		العصر الاغريق الرومانى الاسكندر المقدونى والبطالمة الرومان فى مصر
	بعد الميلاد	
القرون من ٣ - ٦	٥٠٠	
نهاية المملكة المروية		العرب فى مصر
المجموعة س		
الممالك المسيحية فى النوبة		
فرس عاصمة نوباتيا	١٠٠٠	
تتويج تيموتيه		
من أواخر الأساقفة		
النوبيين فى قصر أبريم		

مصلحة الآثار السودانية حملات استطلاع جوية وأرضية ، من فرس إلى دال . وقد عرض على البعثات الأجنبية عقود امتياز التنقيب بهذه المنطقة ، وأجرت مصلحة الآثار السودانية حفريات تكميلية فى المواقع التى لم تجد من يلتزم التنقيب فيها ، وكانت نتائج أعمال الاستطلاع هذه باهرة . ففى عام ١٩٥٩ تم التنقيب فى عشرة مواقع فقط فى هذه المنطقة ، أما فى عام ١٩٦٩ فقد تم التعريف بأكثر من ألف موقع . وأعطى الاستطلاع الجوى نتائج غير متوقعة ، وأتاح نوع خاص الكشف فوق الحائل الصخرى الطبيعى للنيل عند سمنة عن آثار سد بناه المهندسون المصريون منذ تسعة وثلاثين قرنا مضت

(انظر أيضا المقال بصفحة ٢٠)

البعثة : المعهد الفرنسى للآثار الشرقية
الموقع : من وادى السبوع إلى السيالة
المقرر : فرنسوا دوماس

كان أول موضع أجرى فيه التنقيب معبد رمسيس الثانى بوادى السبوع . وفى الطريق المؤدى إلى مدخل المعبد « الدروموس » ، وقعت البعثة على اكتشاف هام يتمثل فى شئ كالموقد من البرونز ، وجد فى مجموعة من المبانى المحيطة بها « الدروموس » ، وعليه على مايبدو « خرطوشة » رمسيس الثانى .

تضحية غريبة :

وإلى جانب هذا الموقع فحصت البعثة المحاجر التى استخرج منها الكتل الحجرية التى استعملت فى بناء المعبد . وفى القسم العلوى من أحد هذه المحاجر كشفت البعثة عن فجوة لعلها كانت قبرا لأن لها بابا منحوتا نحتا جيداً فى الحجر الرملى النوبى . وفى داخل الفجوة وجدت أجزاء من جثث المعيز والوز ، وبيض الوز ، وكذا طبق وإناء من عهد الأسرة التاسعة عشرة . وفى الإمكان تفسير هذه الأشياء الغريبة المدفونة بأنها بقايا تضحية جرت إيذانا بافتتاح المحجر

رمسيس يقدم للقديس بطرس باقة من الزهر

هناك كنيسة قبطية أعدت فى داخل معبد رمسيس الذى تحل مقدسه الوثنى القديم بمظهر عجيب ، فقد حجب الفنانون المسيحيون النقوش المصرية القليلة البروز تحت طبقة من الجبس رسموا عليها صورة القديس بطرس . وبمرور الزمن تساقط الجبس فى بعض المواضع ، فكشف عن بعض النقوش المصرية ، وظهر من جديد رمسيس الثانى وهو يقدم باقة من الزهر للقديس بطرس !

وثمة موضوعات أخرى مثل ملك يحمل بين ذراعيه مومياء ، لعله يمثل روح أحد الموتى ـ تساعد على تفهم التصوير القبطى .

قرية من المجموعة ج

وعلى الشاطئ الصخرى الذى يشرف على النهر اكتشفت قرية من المجموعة ج التى تنتمى إلى حوالى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، وكانت هذه القرية محاطة بجدار من الحجارة الجافة ، له باب محصن فى الناحية الشرقية ، وهى الناحية الأضعف فى الجدار . وكشف ثمة عن أوان فخارية نوبية ، وأدوات وأسلحة حجرية وعظمية .



الصورة : سد عمره تسعة وثلاثون قرنا

التصوير : الاستطلاع الجوى التابع للحكومة السودانية .



رسم ب . لانتريك ـ ف . دوما ، فرنسا .

البعثة : البعثة الأثرية التابعة لمؤسسة هنرى م . بلاكمر ، ومركز الدراسات الشرقية بجامعة جنيف
الموقع : منطقة عكاشة
المقرر : شارل مايستر

كان للبعثة حظ اكتشاف موقع من العصر الحجرى القديم عثرت فيه على مجموعة من عينات الأدوات الحجرية تضاهى مجموعة « اللوفلوازى » ، كما جمعت أكثر من ٩٠٠٠ من الأشياء المصنوعة . والأدوات الحجرية من نمط « كرما القديمة » . وثمة شقفات مزودة بزخارف مختلفة الطرز .

أكثر من مئتى مقبرة من نمط كرما

أحرزت البعثة اكتشافا بديعا آخر ، موضوعه جبانة تحتوى على أكثر من مئتى مقبرة يرجع تاريخها إلى الفترات الثلاث للحضارة المسماة بحضارة كرما (٢٥٠٠ إلى ١٥٠٠ ق . م) وكانت الجبانة قد نهبت ، ومع ذلك فإنها زودتنا بمادة وفيرة ، وبخاصة أوان حمراء جميلة ذات حواف سوداء فى شكل زهرة « التوليب » (الخزامى) .

آنية مروية مزينة بزخرف على شكل العين

يبدو أن هذه المنطقة قد هجرت فى عصر الدولة الحديثة ، ولكنها عمرت من جديد فى العصر المروى ، كما يشهد بذلك العديد من الجبانات التى أفرغت من محتوياتها ، واستخدمها المسيحيون من جديد . ومع ذلك بقيت تحف مروية ممتازة ، منها إناء جميل من طين نضيج يتكرر فى زخرفه عشر مرات رسم عين يسرى .

من شواهد العصر المسيحى

أربع مجموعات من المساكن ، وثلاث كنائس ، وحصن صغير ، والسور الحصين لكنيسة كاجيراس ، وكثير من الجبانات المسيحية والقبور التى تنتمى الى عصور سابقة وأعيد استعمالها ، كل هذه شواهد تثبت أن المنطقة عمرت من جديد تعميراً نسبياً فى العصر المسيحى (حتى سنة ١٥٠٠ ميلادية)



ابريق مروى مزين بعشر عيون

الصورة : ك مايستر ، سويسرة .

البعثة : أكاديمية العلوم بالاتحاد السوفيتى
الموقع : منطقة الدكة . وادى العلاقى
المقرر : بوريس بيوتروفسكى

كان المطلوب فى منطقة الدكة هذه استكشاف قرى قديمة ، وجبانات ، وآثار على طول ضفة النهر . واستطاعت البعثة أن تحصل على مجموعات هامة من الأدوات من العصر الحجرى القديم ، وتجرى حصرا للعديد من الصخور المنحوتة فى عصر ماقبل التاريخ ، وتنقب فى قبور الدولتين القديمة والحديثة .

وادى العلاقى . طريق الذهب

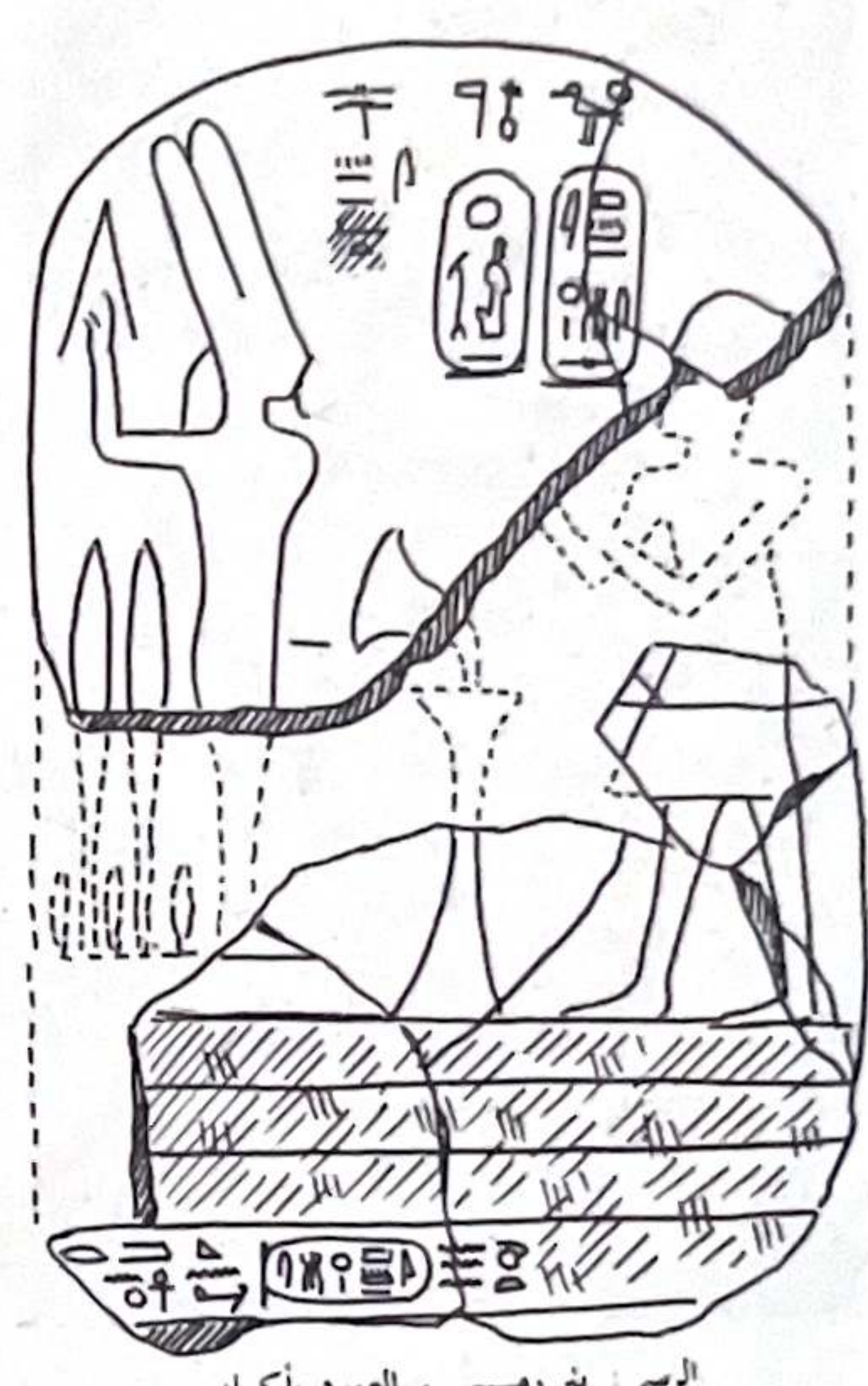
الجدير بالذكر ، بين أهم الأعمال التى أجريت ، التنقيب فى وادى العلاقى ، وهو من أكبر الوديان الجافة فى النوبة ، يتبعه الطريق المؤدى إلى مناجم الذهب النوبية القديمة . وقبل أن يبدأ التنقيب عن الذهب فى النوبة فى عصر الدولة الحديثة كان ملوك الأسرة السادسة قد أرسلوا القوافل فى وادى العلاقى للبحث عن الأحجار الكريمة ، والأبنوس ، والعاج ، وجلد الفهد . ووصفت هذه البعثات بالتفصيل بكتابات منقوشة على طول الوادى . وقد وقعنا بالصدفة على كتابة تعزى إلى أحد « رؤساء القوافل » ، الأمير حونس ، وهو نبيل من نبلاء بلاط الأسرة السادسة ، قبره فى أسوان . وثمة اكتشاف آخر أشد إثارة للدهشة ، يتمثل فى كتابة وجيزة لعين آخر من أعيان البلاط المشهورين ، هو أونى الذى قام بعدة رحلات إلى النوبة . غير أن أغلبية المئى كتابة التى اكتشفناها ترجع إلى عهد الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة حين أصبحت النوبة هى المورد الرئيسى للذهب إلى مصر . ولقد ثبت الآن ، على سبيل المثال ، أن بعض الأشياء التى وجدت فى مقبرة توت عنخ آمون كانت من ذهب النوبة .

بئر رمسيس . محبوب آمون

كان أهم مايشغل هذه القوافل هو العثور على آبار للمياه . فى عام ١٨٤٢ اكتشف عالم الآثار الفرنسى بريس دافين فى خرائب قلعة كوبان القديمة عند مصب وادى العلاقى عمودا حجرياً كبيراً يمثل رمسيس الثانى وهو يقدم بعض القرابين إلى الإله حورس « إله منطقة باكى » ، والإله مين « الذى يسكن فى الصخور » . ويحكى النص طويلا عن مقدار انشغال بال فرعون بنقص الماء على طول الطريق الذى يؤدى إلى مناطق الذهب . وأصدر رمسيس أمره إلى حاكم المنطقة بأن يواصل البحث عن الماء ، رغم أن أباه قد حاول عبثا العثور على شىء منه . وأخيرا نجحت الأبحاث ، وحفرت بئر أطلق عليها اسم الملك . غير أنه حين أجرى بريس دافين اكتشافه كان الجزء الأسفل من العمود مكسورا ، وبخاصة فى الموضع الذى دون فيه اسم البئر : « ... رمسيس ، محبوب آمون ، الباسل ... » وبذل علماء الآثار جهودهم على مدى عدة سنوات لاكتشاف هذه الجملة لتعود كما كانت ، وتحديد موقع البئر تحديداً دقيقا .

وليتصور المرء كم كانت بعثتنا تتوق إلى حل هذا اللغز ، ووضعنا كل آمالنا فى موقع يعرف باسم « بير العسكرى » . وكان الواضح من بعض العلامات أن الموقع قد زاره البعض من قبل ، ولكن دليلنا شرح لنا أن بعض الجنود البريطانيين أقاموا ثمة معسكراً فى القرن الماضى ، وأنهم حفروا الأرض أيضا بحثاً عن الماء .

وفى آخر يوم لأعمالنا فى بير العسكرى ، فى موقع المعسكر القديم ، وجدنا قطعاً من الحجارة مغطاة بكتابات هيروغليفية أعدنا تجميعها فشكلت عمودا حجريا يسجل احتفالا بتضحية وهبها رمسيس للإله مين . وكانت النقوش الهيروغليفية تالفة لدرجة أن العمود بدا لنا قليل الأهمية ، ثم لاحظنا جملة واحدة يمكن حل رموزها ، تقول : « بئر رمسيس ، محبوب آمون ، الباسل فى حياته » . ووجدنا العمود الذى يحدد موقع البئر ، وكذا الجزء من الكتابة التى تنقص تلك التى كان بريس دافين قد أماط اللثام عنها فى حصن كوبان . وهكذا وضح سر ظل غامضا مئة وعشرين سنة .



الرسم : بئر رمسيس . العمود بأكمله

(الرسم : ب . بيوتروفسكى . الاتحاد السوفيتى)

البعثة : الهند
الموقع : عافية وتوماس
المقرر : ب . ب . لال

ذهبت البعثة الهندية إلى منطقة عافية وتوماس على بعد ١٥ كيلو متراً تقريباً شمال عنيبة عاصمة النوبة السفلى . وجرت أعمالها فى مواقع تنتمى إلى العصر الحجرى ، ومساكن المجموعة أ ، ومقابر المجموعة ج .

اكتشاف أدوات من العصر الحجرى

كشف البحث على ضفاف النيل حول عافية وتوماس عن أدوات ترجع إلى العصر الحجرى المتوسط والحديث . فالأولى تشمل محارز ، ومثاقب ، ومكاشط منوعة ، وأكرات صغيرة ذات وجه واحد ترجع إلى بداية العصر الحجرى . أما أدوات نهاية العصر الحجرى فإنها تشمل نصالا ومثاقب . والمعتقد أن هذه هى أولى أدوات العصر الحجرى التى اكتشفت فى منطقة عافية/توماس .

تأريخ المجموعة أ باستخدام طريقة « الكربون ١٤ »

يلاحظ فى مساكن المجموعة أ عصران من البناء . فالبيوت كانت تبنى بركام حجرى يؤخذ من ملاط يصنع من طمى النيل . وكان السكان يعتمدون فى معيشتهم أساسا على الزراعة ، وتربية الحيوان . ومع أن نصالا من حجر الصوان الأسود ، ومحارز ومثاقب من عظام ، وفؤوسا من حجر مصقول ، كانت تستعمل لأغراض شتى ، فإن هؤلاء الناس قد أدركوا عصر المعادن ، كما يدل على ذلك مثلا اكتشاف مقاص من نحاس . وعلى وجه العموم كانت الثقافة النوبية من المجموعة أ تعتبر معاصرة لنهاية ثقافة عصر ماقبل الأسرات ، وبداية ثقافة عصر الأسرات فى مصر الوسطى والعليا ، ولو أن هذه النقطة لم تزل موضع جدل . ويبدو جليا أن اكتشافات البعثة الهندية قد بتت نهائيا فى هذه المسألة لأنها حددت ثلاثة تواريخ باستخدام طريقة « الكربون ١٤ » . تتدرج ، بعد تصحيح « مسكا » بوضوح ، من ٣١٦٠ إلى ٢٩٨٥ ق.م .

هل هناك صلة بين النوبة والهند ؟

لقد تبين أن لجبانة المجموعة ج التى يمكن تأريخها إجمالا من النصف الأول من الألف سنة الثانية قبل الميلاد أهمية مماثلة . فقد دفن الموتى فى قبور مستطيلة ذات أطراف مستديرة ، طولها مابين ١.٥ متر ومترين تقريباً ، وعرضها متر واحد ، وعمقها بين متر ومتر ونصف . وكانت الجثث بعامة راقدة على جانبها الأيمن ، والركب مثنية ، والرأس موجه ناحية الجنوب الشرقى . وبعد الانتهاء من مراسم الدفن يقام حول القبر دائرة من حجرة يعلوها فى الكثير من الأحيان جثوة (كومة مخروطة الشكل من تراب أو حجر) . ونذكر من بين الأشياء التى جمعت من القبور طبقا من الصوان يحمل آثارا من الكحل ، وبه مرآة من خشب ، وأوانى فخارية كثيرة ، سوداء ، وسوداء مع لون أحمر ، وحمراء ، وأشياء من جلد ذات أشكال وزخارف منوعة . ونلاحظ بنوع خاص كأسا مزدانة بحزات بيض تصور دائرة من الراقصين .

وتتجلى بعض وجوه الشبه بين قبور المجموعة ج هذه وبين النصب الحجرية الضخمة غير المنحوتة فى جنوب الهند . نجد مثلا كؤوسا من فخار أحمر وأسود بين الأوانى الفخارية فى القبور الحجرية الهندية . كذلك فإن الحائط الدائرى الذى يحيط بقبور النوبة له نظيره فى جنوب الهند ، حيث ترقد الجثث أيضا مثنية على جانبها الأيمن . ترى هل كانت هذه المشابهات عرضية ؟ هناك زهاء ٤٠٠٠ كيلومتر تفصل بين النوبة والهند ، وأكثر من خمسمئة سنة بين المجموعة ج وبين مقابر جنوب الهند . لابد إذن من البحث عن حلقات هذه السلسلة فى المناطق التى تفصل الهند عن النوبة ، ربما فى الشرط الساحلية الضيقة فى جنوب بلاد العرب وإيران .

الصفحة الملونة (٣٥)

وصف الأستاذ ميخالوفسكى ، رئيس البعثة الأثرية البولندية مجموعة من التصاوير الحائطية المسيحية اكتشفتها البعثة فى كاتدرائية فرس القديمة بالنوبة السودانية بأنها « شاخص جوهرى فى تاريخ الفن البيزنطى » (انظر النص الخاص بهذه البعثة) . ويظهر فى أقصى اليسار ، الشهيدة دامين ابنة أحد حكام أقليم الدلتا ، والتى اعتنقت المسيحية وماتت شهيدة فى عام ٢٨٤ فى عصر اضطهادات دقلديانوس . ويرجع تاريخ هذه الصورة الحائطية إلى أواخر القرن العاشر . وإلى اليسار القديس بطرس واضعا يدبه على كتفى الأسقف النوبى القبطى بتروس الذى كان أسقفا لمدينة فرس من ٩٧٤ إلى ٩٩٩ ، كأنما هو يشمله بحمايته . وترجع هذه الصورة إلى الفترة نفسها . وبأسفل صورة حائطية من القرن الحادى عشر تمثل ماريانوس ، أسقف فرس من ١٠٠٠ إلى ١٠٣٦ بالقرب من صورة العذراء والطفل وتوجد كل هذه التصاوير الحائطية حاليا فى متحف وارسو الأهلى

(تصوير : جورج جيرستر ـ رافو ، باريس)

الصفحتين الوسطيين الملونتين (٣٦ ، ٣٧)

واجهة معبد أبو سمبل الكبير . وتشرف تماثيل رمسيس الثانى الضخمة على مياه النيل من فوق الموقع الجديد الذى نقلت إليه بفضل عمل تقنى جرىء ورائع تحقق فى أربع سنين ونصف سنة .

(الصورة : فريدج مارون ـ نيويورك (مصر الخالدة ـ ناثان ـ باريس)

الصفحة اليمنى الملونة

هذه الأقنعة الجنازية الهشة لم تزل تحتفظ بملامح لثلاثة أشخاص دفنوا في النوبة منذ قرابة ٤٠٠٠ سنة . وقد أعيد تكوينها من أجزاء متفرقة اكتشفتها البعثة الأثرية الفرنسية في النوبة السودانية في جبانة قريبة من مرجبة عند الجندل الثاني للنيل . وقد شكلت هذه الأقنعة الملونة بعد أن اختفت وجوه الموتى تحت أربطة المومياء .

(صور أندريه فيلا - البعثة الأثرية الفرنسية السودانية)

البعثة : المركز البولندي لآثار البحر المتوسط
الموقع : فرس
المقرر : ك . ميخالوفسكي

كنيسة تحت الرمل

كان الاكتشاف الذي تم في فرس في النوبة السودانية هو دون نزاع أعظم إسهام للبعثة الأثرية البولندية في حملة النوبة . فهناك ، بين مجموعة من المباني المقدسة وغير المقدسة المدفونة تحت الرمال ، استخلصت البعثة تحت جدران قلعة عربية كاتدرائية مسيحية قديمة هائلة ذات جدران مزينة بأكثر من ١٢٠ صورة حائطية في حالة جيدة . واليوم ترقد فرس تحت أربعين متراً من مياه بحيرة السد . ولكنها كانت في القرن السابع عاصمة النوبة الشمالية . وفي غضون ثلاث سنوات من التنقيب أحيت البعثة البولندية من جديد فصلا مجهولا من تاريخ النوبة في عهود المسيحية الأولى ، وأعادت إلينا بعضا من روائع الفن التي تصور هذه الفترة .

القديسة آن تدعو للسكوت

من أبرز الأعمال الفنية : رأس للقديسة آن وقد وضعت إحدى أصابعها على شفتيها داعية للسكوت ، والأسقف الأسود بتروس في حماية القديس بطرس ، والأسقف مريانوس ، والملكة الوالدة مرتا ذات البشرة السمراء ، وعيد ميلاد كبير بضم الرعاة ، والملوك المجوسيين الثلاثة .

ومن المستحيل بيان كل الأشياء التي عثر عليها خلال أعمال التنقيب ، مثل الكأس الفاخرة من القرن الحادي عشر . ثم إن هذه الحفائر لم تتناول موقع الكاتدرائية فقط ، ولكنها شملت مجموعة كاملة من المباني ، من بينها قصر رئيس أبرشية ، وديران ، وكنيسة ثانية .

سباق مع الزمن

كانت الحفائر في فرس سباقا مع الزمن . ففي غضون أربعة مواسم ، كل موسم منها مابين خمسة شهور وستة شهور ، استطاعت البعثة أن تنقذ أهم التحف ، من تصاوير حائطية في الكاتدرائية ، رفعت ووضعت في صناديق ، ومشغولات برونزية ، وخزفيات (سيراميك) ، ونقوش ، وغطاء الأساقفة وتواريخها أما قائمة أسماء الشخصيات الأسقفية البارزة المسجلة على حوائط الكاتدرائية فإنها وثيقة رئيسية لدراسة المسيحية النوبية من الوجهة التاريخية . وما أن تم إغلاق الصناديق ودقها بالمسامير حتى وصلت مياه النيل إلى مستوى التل الذي سنكتشف منذ قليل . وبعد أن انقضت بضعة شهور لم يبق لنا سوى تيجان النخيل البارزة من البحيرة تدل على الوضع الذي كانت فرس مزدهرة عنده فيما مضى .

البعثة : البعثة الأرجنتينية بالنوبة
الموقع : عكاشة
المقرر : أ . روزنتاسر

أرسلت الأرجنتين منذ عام ١٩٦١ عدة بعثات للعمل في النوبة السودانية مع الأثريين الفرنسيين . وقد رفعت البعثة الأنقاض عن معبد عكاشة وأنقذت العديد من النقوش القليلة البروز الهامة التي توجد الآن في الخرطوم .

وفي عهد كوش

اكتشفت البعثة الأرجنتينية خلال موسم ١٩٦٢/١٩٦٣ خمسة هياكل شيدها الفرعون سيتي الأول ، أبو رمسيس الثاني ، وآثار باب يؤدي إلى هيكل مكرس لحقانخت ، نائب ملك النوبة في عهد رمسيس الثاني . ويرى في هذا الهيكل نائب الملك في ثياب الاحتفالات الرسمية ، مع هذه الكلمة المنقوشة « حقانخت ، ولي عهد كوش » .



(١) القديسة آن . فرس - الصورة : ك . ميخالوفسكي - متحف وارسو الأهلي



(٢) رفع صورة حائطية في فرس - الصورة : ريكس كيتنج . باريس



(٣) حقا نخت ، ابن ملك كوش - عكشة -
الصورة : أ . روزنفاسر ، الأرجنتين

البعثة : كندا
الموقع : سهل كوم أمبو
المقرر : فيليب أ . سميث

سهل كوم أمبو

إذا كانت البعثة الكندية فى النوبة قد اختارت التنقيب . لا فى المنطقة التى سوف تغمرها المياه ولكن على بعد أربعة وخمسين كيلومترا شمال السد العالى بأسوان . فى سهل كوم أمبو . فذلك لأن الوقت قد حان آنئذ لنقل أغلبية المصريين من أصل نوبى إلى أراضى مستصلحة حول كوم أمبو . ولأن تسوية الأراضى التى بدأت بالفعل كانت تهدد بمحو مواقع تنتمى إلى عصور ماقبل التاريخ .

فى العقد الثالث نشر مهندس فرنسى مقيم فى كوم أمبو . اسمه أدمون فنيار . عدة دراسات بشأن المواقع قبل التاريخية فى المنطقة . وحتى عام ١٩٦٢ كانت هذه الدراسات هى فى الواقع مجمل المعارف المتعلقة بالعصر الحجرى القديم الأعلى فى مصر . ويبدو أن هذه المنطقة كانت مأهولة بالسكان لعدة مئات من ألوف السنين فى العصر الحجرى القديم . ولو أنه لم يبق إلا القليل من آثار تلك الجماعات البشرية التى عاشت قبل ١٥٠٠٠ سنة تقريبا سابقة على ميلاد المسيح .

خمس ثقافات قبل عصور ماقبل التاريخ

عرّف فنيار ثقافة . سماها « سيلية » . تتميز بمشغولات خاصة بأدوات حجرية . وكان يتوقع وجود مشغولات أخرى . كان هناك فى الواقع خمس « ثقافات » (يمكن تمييزها بأدواتها الحجرية) حول كوم أمبو . من عام ١٥٠٠٠ إلى ٩٠٠٠ تقريبا ق.م. واستطعنا استخلاص بعض المساكن ، على سطح الأرض أو مدفونة تحته . وإجراء أول التاريخات للعصر الحجرى القديم فى مصر باستخدام الكربون الإشعاعى .

يمكن تلخيص حياة الإنسان على سهل كوم أمبو كما يلى : فى حوالى عام ١٥٠٠٠ ق.م. كان يعيش فى كوم أمبو أناس يصنعون أدوات من الصوان من نمط يسمى فى النوبة « حلفان » . ويبدو أنهم كانوا يعيشون على جنى الثمار . والصيد والقنص .

ومن ١٣٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ ق.م. أعقب هؤلاء مجموعتان متميزتان أمكن تعريفهما أخيراً : « السليليون » الذين كانوا ينحتون أدوات حجرية صغيرة أو من « الميكروليت » (صخر بركانى) . و « السبكيون » الذين كانت أدواتهم بنوع خاص صفائح ضيقة طويلة . وظهر فى حوالى عام ١١٠٠٠ ق.م مجموعة رابعة أطلقنا عليها اسم « المنشيون » . كانوا يستعملون أدوات ثقيلة مصنوعة من شظايا حجرية . وبخاصة محكات . وعددا كبيراً جداً من المدقات (أيدى الهاون) من الحجر الرملى تستخدم فى الغالب فى إعداد الطعام . ونجد أخيراً . ابتداء من حوالى عام ١١٠٠٠ ق.م . « السبيليين » الذين ذكرهم فنيار . والذين يبدو أنهم عاشوا ثمة حتى أوائل العصر الهولوسينى (العصر الحديث) .

والصورة التى نستخلصها من الستة الآلاف سنة هذه هى صورة جماعات صغيرة لاتتجاوز بضع مئات من الأفراد . تتجول فى كل الفصول فى سهل كوم أمبو . وكان هؤلاء أساسا من الصيادين .

طراز فريد من فن التصوير الحائطى

أحصينا أيضا مجموعة من الرسوم الصخرية لحيوانات متوحشة . منقوشة فى الصخور الشمالية للسهل . تصور نشاط صائدى المنطقة خلال ألوف السنين التى سبقت إدخال الإنتاج الغذائى فى مصر . أى (على مايحتمل) بعد عام ٦٠٠٠ ق.م. ولم يزل عمر هذه الرسوم غير معروف على وجه اليقين . ويبدو طرازها فريدا فى نوعه فى وادى النيل .

ومن الملائم وضع نتائج أبحاثنا فى سهل كوم أمبو فى الإطار الأعم الذى يشمل الحياة فى عصور ماقبل التاريخ فى وادى النيل كله (فى كل من مصر والسودان) كما أعاد تشكيلها الأخصائيون خلال العشرين سنة الماضية . والمعروف الآن أن هذا الوادى لم يكن فى أواخر العصر الحجرى القديم منطقة قليلة السكان . فقيرة ومنعزلة . بل كانت على العكس من ذلك منطقة ثقافية عاش فيها جماعات بشرية عديدة ومنوعة ، زاولت المبادلات فيما بينها فى بيئة من أنسب البيئات للإنسان .

ويعطينا الوصف الذى وضعناه عن الحياة فى سهل كوم أمبو . وفى نطاقه . فكرة جيدة عن الكيفية التى عاش بها جماعات أخرى من البشر فى العصور السابقة على مزاولة الإنسان الزراعة فى النوبة وفى مصر العليا والسفلى . ويوضح هذا الوصف تكيفهم مع بيئة وادى النيل . والتلال المجاورة له . ومشارف الصحراء .



الصورة : جزء من نص طقسى . فى سونارق
(تصوير : أ . دنكلر . هايدلبرج)

البعثة : معهد الآثار الألمانى . جمهورية ألمانيا الاتحادية
الموقع : كولب . جزر سونارق . توروموكى . وتنجور
المقرر : اريش دنكلر

أجرى المعهد أعمال تنقيب فى جزر بطن الحجر الثلاث . بين الجندل الثانى وعكاشة . وكذا فى كولب على بعد حوالى ثلاثة كيلومترات غربى عكاشة على الضفة الغربية للنيل .

ثلاث كنائس قروية

كشفت البعثة عن ثلاث كنائس . كل منها مبنية فى قرية صغيرة . وتسع مابين عشرين وخمسة وعشرين شخصا . وكانت كنيسة جزيرة سونارق أفضلها من ناحية الحفظ . فلم يزل المذبح قائما بصدره الرخامى . والمنبر المرتفع فى وسط المبنى . والحائط الغربى الذى يرجع إلى القرن الثانى عشر أو الثالث عشر يشقه مدخلان . أحدهما للرجال . والثانى للنساء .

كشفت البعثة كذلك عن ثلاثة مواقع محصنة . وكان أضخم الحصون فى هذه المرة أيضا هى حصون سونارق . هذه الحصون مثلثة الشكل . مبنية بالأحجار بلا طين . ومتوافقة مع طبيعة الأرض . وتحمى حوالى خمسة عشر بيتا . مع إتاحة ساحة فضاء كافية لبضعة رؤوس من الماشية .

كولب : قرية محصنة

كولب قرية محصنة . ذات أهمية خاصة . ويرجع تاريخها على الأرجح إلى القرن الثامن ، أما السور المحيط بها فربما يكون قد بنى فيما بعد . وفى الكثير من بيوت القرية وجدت قطع من أشياء تحمل اسم ميشيل . أو علامة بهذا الاسم . بأحرف يونانية . هذه القطع بها ثقوب تفيد بلاشك فى تعليق الأشياء . وتدل كثرة هذه النقوش الأثرية كما يبدو على أن القرويين كانوا يعرفون حروف الهجاء اليونانية .

أقدم نص طقسى

لاشك فى أن أهم اكتشاف كان قطعة صغيرة من الرق وجدت فى التربة الرملية بكنيسة سونارق . وعليها أقدم نص طقسى معروف لدى الكنيسة النوبية . وعلى إحدى الصفحات دون بعناية بالحبر الأحمر والأسود نص صلاة قربانية يونانية .

البعثة : جامعات تورينو . وميلانو . وروما
الموقع : دهيت . كلابشة . الحمندى . المحرقة . كوبان . ساباجورا . تامت . سونكى .
المقرر : سرجيو دوناندونى

أسهمت إيطاليا فى حملة التنقيب فى النوبة فى ثلاثة قطاعات : فأجرت جامعة تورينو أبحاثا فى موقعى دهيت وكلابشة . وجامعة ميلانو فى مواقع المحرقة . والحمندى . وكوبان . وساباجورا . وجامعة روما فى موقعى تامت وسونكى

مجموعة من الثقافات المحلية

لم تتناول بحوث البعثة الإيطالية فى النوبة الآثار المصرية التى تحويها الأرض النوبية (ولو أن هذا كان جوانب العمل الذى أجرى فى دهيت وكوبان) بقدر ماتناولت الآثار التى تتيح التعرف على بعض الثقافات المحلية . كانت هذه الثقافات فى كثير من الأحيان مجموعات ثقافية لا كتابة فيها . ومن ثم لانستطيع أن تخاطبنا إلا من خلال أعمالها الفنية . ففى جبانة فى تامت مثلا وقعنا على آثار العصر من أقدم العصور . مزامن لمصر قبل عهد الأسرات . ولمستهل عصر الأسرات . أما الرسوم على الصخر والأوانى الفخارية التى اكتشفت فى ساباجورا وكوبان فإنها تحدثنا عن أقوام من الرعاة كانوا يعيشون فى عصر الدولة الوسطى .

نوبة مستقلة

غير أن أهم بحث مثمر كان بلاشك هو ذلك الذى تناول فترة زمنية لاحقة . ذلك أن الكشف عن جبانة مروية فى المحرقة . عند الحد الفاصل بين العالم الرومانى وأقاليم ملوك النوبة . وكانت عاصمتهم فى مروى النائية . يوضح إلى أى حد فى الشمال امتدت هذه الثقافة الأفريقية وفرضت طابعها الشخصى .

وفى الحمندى أسعدنا الحظ باكتشاف كتابة معاصرة فرضا لدخول المسيحية فى المنطقة . ومن ثم تيسر لنا أن نميز نمطا معينا من أنماط تنظيم المدن المسيحية فى الحمندى . وساباجورا . وكلابشة .

واكتشفنا آثارا مسيحية هامة أخرى يرجع تاريخها إلى ذروة عصر استقلال النوبة . حين دونت نقوش كتابية لأول مرة باللغة المحلية . لا بلغة البلاد المجاورة : فقد زودنا معبد فى تامت وجبانة صغيرة لكنيسة فى سونكى بمجموعة من التصاوير . والكتابات المنقوشة . ودلائل أخرى لحياة اجتماعية وثقافية . متأثرة حقا بنظيرتها فى فرس . العاصمة المجاورة . ولكنها مع ذلك غنية ومنوعة .



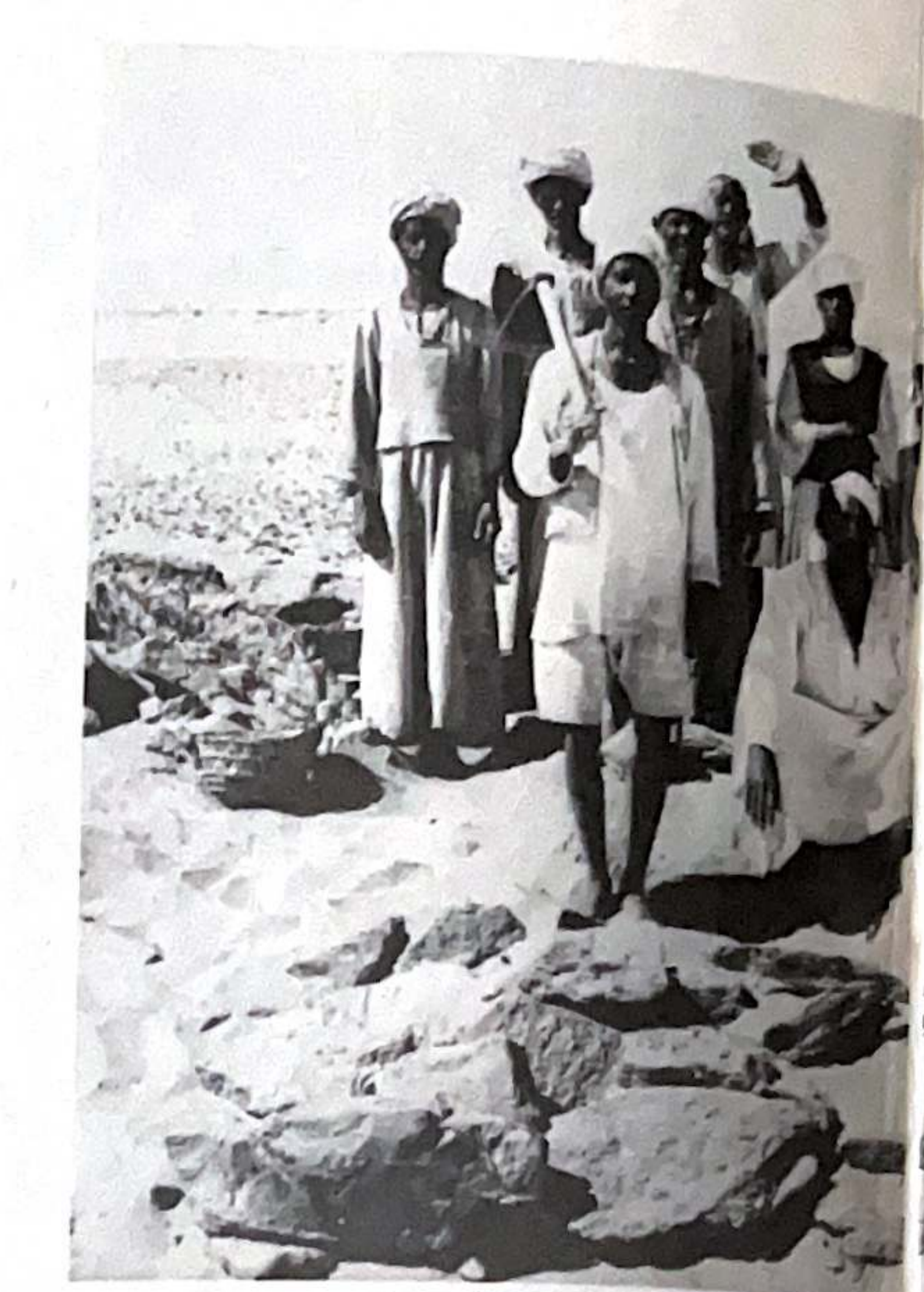
عمال سودانيون فى أرجن الصورة : م . لونجوبرا ــ كاماناتا

البعثة : معهد المصريات بجامعة هومبولت ببرلين الشرقية . جمهورية ألمانيا الديموقراطية .
الموقع : من فرس إلى دال (بالضفة الغربية) ومن الجندل الثانى الى دال (بالضفة الشرقية)
المقرر : فريتز هنتز

٦٠٠ نقش و ٧٥٠ مجموعة من الرسومات على الصخور

كلفت بعثة جامعة هومبولت بمهمة إحصاء كل النقوش وكل الرسوم على الصخور فى النوبة السودانية من الجندل الثانى إلى دال على الضفة الشرقية للنيل ، ومن فرس إلى دال على الضفة الغربية . وقد نسخت وصورت كل النقوش والرسوم التى اكتشفت ، وعملت رواشم (طبعات بارزة) باللتى (عصارة نباتية) . وفى هذه المناسبة أعدت تقنية جديدة للرسم (الطبع البارز) بالألوان . واستمر العمل ثلاثة مواسم متتالية . وتضمنت المادة المجموعة والمسجلة قرابة ٦٠٠ نقش وأكثر من مئة موقع أخذ منها ٧٥٠ مجموعة من الرسوم على الصخور . ولتوزيع النقوش الصخرية أهمية كبيرة . ففى شمال سمنة ، التى كانت فيما مضى هى الحد الجنوبى للدولة الوسطى فى مصر القديمة ، يرجع تاريخ أغلبية النقوش إلى عصر الدولة الوسطى . ولكن فى جنوب سمنة يرجع تاريخ النقوش كلها إلى عصر الدولة الحديثة ، باستثناء ثلاثة منها بالقرب من جندل دال ، وترجع إلى عهد الدولة القديمة . أما الاستثناءات الثلاثة فإنها أبعد نقوش الدولة القديمة التى اكتشفت حتى اليوم فى مواقعها من ناحية الجنوب ، وهى من عمل كتاب أو رؤساء عمال الباحثين عن الذهب أو المعادن فى الجبال . كذلك سجلت البعثة علامات فيضانات النيل المعروفة فى سمنة وفى كوما .

وتتوالى الرسوم على الصخور منذ عصور ماقبل التاريخ حتى القرون الوسطى فى تاريخنا الميلادى . وحوالى ١٠٪ من هذه الرسوم تصور حيوانات متوحشة ، وفيلة ، وزرافات ، وظباء ، وغزلانا ، ونعاما ، وتصور ٦٠٪ منها حيوانات أليفة ، من أبقار ، وخيول ، وجمال ، وغنم ، ومعيز ، وكلاب . أما الثلاثون فى المئة الباقية فإنها تصور مشاهد منوعة : فثمة رجال يصيدون ، على ظهور الخيل أو الجمال ، ونساء يرقصن ، ومراكب . ونجد العديد من العلامات الرمزية التى لايسهل دائما تفسيرها .



عمود تذكارى للأمير امنمحات

الصورة : ت . ساف ـ سودربرج ، أبسالا

البعثة : البعثة الاسكندنافية فى النوبة السودانية .
المواقع : الضفة الشرقية للنيل ، من فرس إلى جامى
المقرر : تورجنى سيف ـ سودربرج

قامت البعثة المشتركة من البلاد الاسكندنافية الأربعة ، الدنمرك ، وفنلندة ، والسويد ، والنرويج ، بالعمل فى المنطقة الشمالية من السودان فى شتاء السنوات ١٩٦١ إلى ١٩٦٤ ، وأدت بنجاح عملية تنقيب أثرى شامل للضفة الشرقية للنيل من فرس ، على الحدود المصرية إلى جامى بالقرب من الجندل الثانى ، أى على مسافة تبلغ حوالى ستين كيلومتراً . وقد أحصى هناك قرابة ٤٩٠ موقعاً منذ بداية العصر الحجرى حتى العصر الوسيط ، ولم تكن هذه المواقع كلها معروفة من قبل . وفتح زهاء ٤٢٠٠ مقبرة ، وكشف عن خمس كنائس ومواقع محصنة . وصورت البعثة قرابة ٢٦٠٠ رسم على الصخر ، عملت عنها خريطة تفصيلية وتوثيقا كاملا . وعثرت على حوالى ٣٠٠٠ آنية سليمة على وجه التقريب ، ترجع إلى عهد الدولة الحديثة ، و ٦٠٠٠ قطعة من مختلف أنواع النسيج ، وعظام لحوالى ١٥٠٠ هيكل بشرى .

العمود التذكارى للأمير أمنمحات

اكتشفت البعثة أيضا جبانة نفيسة تضم ٦٩٢ قبراً فى فرس بأقليم دبيرة . ويبدو أن الرأى القائل بأن هذه القبور تنتمى إلى نوبيين من ذوى الثقافة المصرية رأى صحيح . ذلك لأن مقبرة تحوتى حوتب أمير ته خت (دبيرة) الذى كان يحمل أيضا اسم « بتسى » النوبى قريبة جدا من موقع هذه القبور . هذه الألقاب تدل بوضوح على أن صاحبها قد تربى فى بلاط مصر .

ونقبت البعثة عن قبر أمنمحات أخى تحوتى حوتب ، على الضفة الغربية للنيل . وكان أمنمحات موظفاً فى الإدارة المصرية قبل أن يخلف أخاه أميراً على ته خت . وكانت حجرة العبادة تضم حجراً تذكارياً فخما يحمل نصا هيروغليفيا طويلا ، وتصاوير لأمنمحات وزوجته ووالديه .

جثث آدمية

أجرينا تحليلا إعلاميا لعدد كبير من العظام التى تنتمى إلى ١٥٤٦ شخصا عاشوا فى الفترة التى تبدأ من المجموعة س حتى أواخر العصر المسيحى (١٥٠٠) . ويدل هرم الأعمار على أن النوبيين يموتون صغيرى السن بوجه عام . ففى المجموعتين أ ، س يقابل أعلى معدل الوفيات مجموعة الأعمار من ٢٠ إلى ٢٥ سنة ، ويقابل فى المجموعات الأخرى مجموعة الأعمار من ٣٥ إلى ٥٠ سنة . ويبدو أن تحليل مختلف المعطيات ، وبخاصة الأنثروبومترية (الخاصة بمقاييس جسم الإنسان) يكشف عن حدوث تغير فى السكان فى العصر النوبى الأخير ، فى غضون فترة الانتقال من الثقافة المروية إلى ثقافة المجموعة س . ولم تكن المجموعة المسيحية س من طراز شديد الاختلاف عن طراز الجبانات المروية المتأخرة ، ولكنها تختلف اختلافا واضحاً عن المجموعة ج الأقدم منها .

البعثة : جمعية لندن للاستكشاف المصرى
الموقع : قصر إبريم
المقرر : ج.م. بلميل و : ر.د. اندرسون

حصن قصر إبريم

تجاوز مشروع التنقيب فى تل قصر إبريم المحصن كل ماعقد عليه من آمال ، فقد كشف أن هذا الموقع له تاريخ طويل يرجع على الأقل إلى مستهل الدولة الحديثة ، إن لم يكن قبل ذلك ، ويستمر دون انقطاع تقريباً حتى عام ١٨١٢ بعد الميلاد حين هجر نهائيا . ومن ذلك الحين حوله ارتفاع مياه البحيرة إلى جزيرة لم يزل فى الإمكان إجراء حفريات تكميلية بها .

كانت الحصون القديمة رائعة دون شك ، وقد أعيد بناؤها عدة مرات . ولم يزل تاريخ بناء الاستحكام البارز بالطوب المجفف غير معروف ، غير أنه من المحتمل أن يكون أقدم سور متصل قد أقيم فى العصر المروى أو البطلمى ، ودعمه بترونيوس الحاكم الرومانى فى حوالى عام ٢٢ قبل الميلاد .

معبد طهرقا

كان من أثر اكتشاف عدد كبير جدا من الكتل الحجرية التى تحمل ألقاب طهرقا ، فرعون الأسرة « الأثيوبية » (القرن السابع قبل الميلاد) ، أن ولد فكرة وجود صرح من ذلك العصر فى أبريم . والواقع أنه تم فى موسم عام ١٩٧٢ اكتشاف آثار هامة لمعبد شيده هذا الملك ، وثمة نقش قليل البروز ، فريد فى نوعه ، يمثل صورة طهرقا نفسه .

حانة فى المدينة (المجموعة × س)

كشفت التنقيبات التى أجريت فى المحيط الخارجى للحصن عن مدينة رحبة من المجموعة × س مشيدة فوق مبان مروية قديمة ، وربما كانت أبريم مقراً ملكياً . وتدل الأشياء المصنوعة فى هذا العصر على تطور ثقافى أكثر تقدماً مما كان قد استقر فى الأذهان .

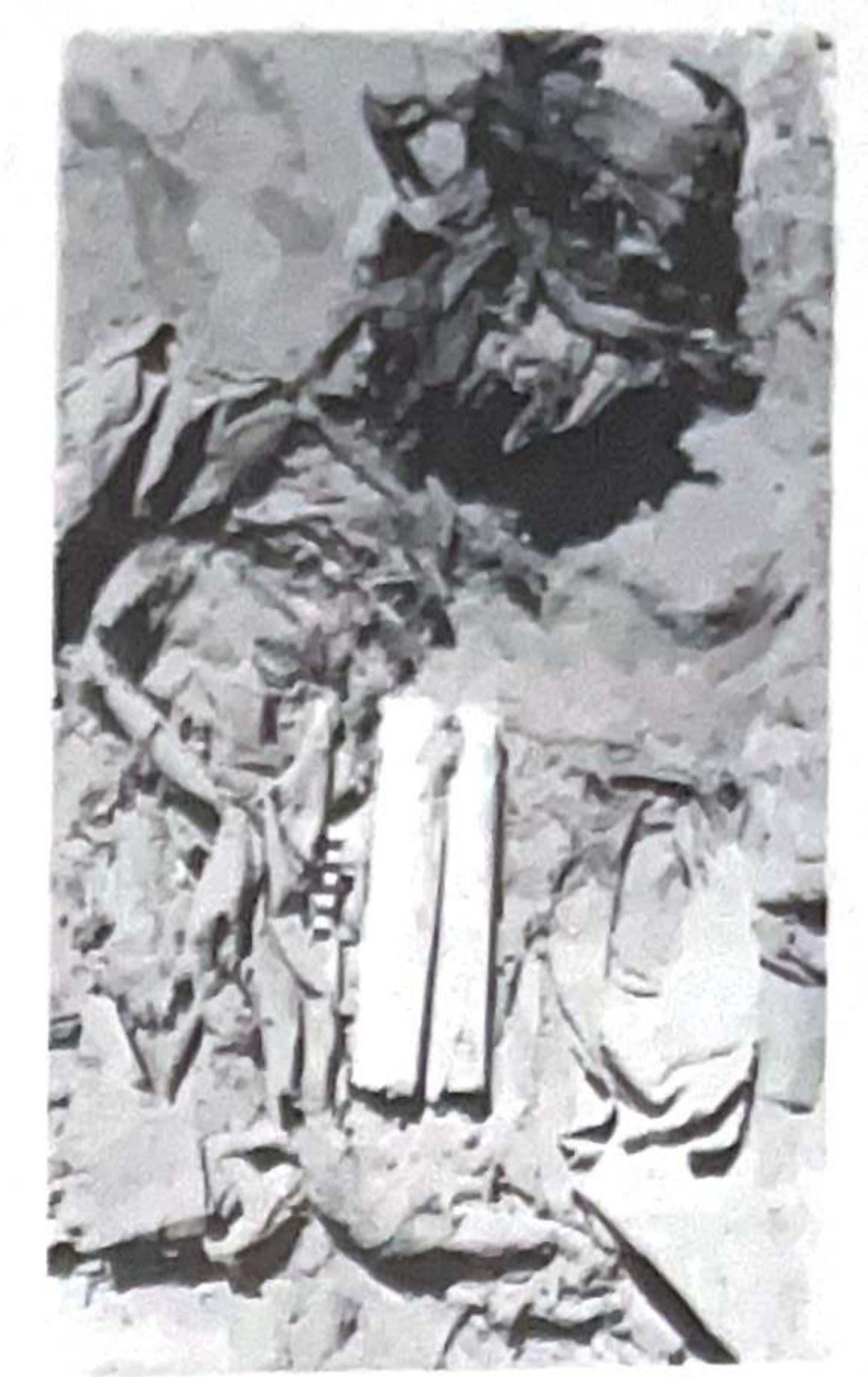
ويبدو أن أكبر مبنى غير دينى فى المجموعة × س فى أبريم كان حانة بنيت فى منتصف القرن الرابع الميلادى فى أواخر العصر المروى . وتدل النقوش المحفورة على قارورة ذات عروتين موضوعة على أثفية (ركيزة ذات ثلاث قوائم) ، وكذا عنقود عنب على الغرض المخصص له المكان ، الأمر الذى يؤكده الاكتشاف الذى تم فى الحجرات المجاورة للآلاف من أباريق الخمر والأقداح المهشمة .

كاتدرائية العذراء مريم

يشرف على قصر إبريم أطلال كاتدرائية فخمة مشيدة على أسس بيوت المجموعة × س وبدايات المسيحية . ولعل المبنى الأصلى يرجع إلى حوالى عام ٧٠٠ بعد الميلاد . وأروقة الكاتدرائية المقنطرة مزينة بزخارف حجرية على شكل الورد ، وأشكال زخرفية أخرى . وللمبنى جناحات بأعمدة من الجرانيت ، أحادية الحجر ، وصدر الكنيسة نصف دائرى شرق ، وبالمبنى قبوان عميقان بهما مقبرتان يصل إليهما المرء عن طريق سلم كبير رائع .

الأسقف النوبى تيموتيه

فى عام ١٩٦٤ اكتشفت مقبرة لأسقف تحت المدخل المؤدى إلى القبو الشمالى للكاتدرائية . وتدل خطابات من بطريرك الكنيسة القبطية ـ وجدت فى هذه المقبرة ، فى لفافتين طولها ٤.٥ متر ـ على أن الأسقف يسمى تيموتيه ، وأنه نوبى ، ورسم أسقفا فى عام ١٣٧٢ . وكان المعتقد لزمن طويل أن تيموتيه هو آخر أسقف نوبى . غير أن إحدى اللفافات الجلدية التسع التى عثر عليها فى إبريم فى عام ١٩٦٤ كذبت هذا الرأى . فالواقع أن هذه اللفافة المكتوبة باللغة النوبية فى العصر الوسيط ، والمؤرخة بعام ١٤٦٤ تعرفنا بأن ثمة ملكاً نوبياً يدعى



(١) حلة الأسقف تيموثيه ، والخطابان اللذان وجدا في قبره

الصورة : ج.م. بلمل . المملكة المتحدة

حوبل كان يحكم وقتئذ في جبل عدا ، في حين أن أسقفا اسمه مركى كان يقيم في إبريم .

معاهدة حقيقية

في عام ١٩٧٢ اكتشف في قصر إبريم لفافة جميلة من الرق العربي لها علاقة بتطبيق « البقط » أي المعاهدة بين النوبة المسيحية ومصر المسلمة . وقبلا كان بعض الباحثين يظنون أن كل ماله صلة بهذه المعاهدة قد اخترعه الكتاب العرب اللاحقون . غير أن اللفافة تضفي على هذه المعاهدة حقيقة تاريخية لانزاع فيها : فهي رسالة موجهة في خريف عام ٧٥٨ من حاكم مصر إلى ملك النوبة يشكو فيها من أن نصوص المعاهدة لم تنفذ : فثمة عبيد هربوا من مصر لم يردوا إلى سادتهم . والتجار المسلمون لايستطيعون أن يتنقلوا في النوبة في أمان . وثمة رسل احتجزوا هناك دون سبب .

كورنيليوس جالوس . الحاكم الشاعر

كان أهم اكتشاف مثير للعواطف جرى في موسم عام ١٩٧٨ بردية مدوناً عليها عشرة أبيات رثائية من نظم كورنيليوس جالوس أول حاكم لمصر الرومانية . اشتهر في التاريخ القديم بأنه أسر كليوباترا . وبأنه صديق فيرجيل . وشاعر مشبوب العاطفة نال إعجاب أوفيد . وقبل اكتشاف إبريم لم يكن العالم الحديث يعرف عن جالوس سوى قصيدة ذات خمسة تفاعيل . ولاشك في أن النص المدون بأحرف صغيرة هو أحسن نموذج في حوزتنا في الوقت الحاضر لنسخة معاصرة لعمل من أعمال شاعر لاتيني معروف .

مفاتيح لمعرفة لغتين مجهولتين

غير أن جاذبية إبريم ترجع بالأخص إلى لغتين لم تفك حتى اليوم رموزهما الأساسية . إلا أن الاكتشافات التي تمت بشأنهما في هذا الموقع تتيح معرفة سرهما في يوم من الأيام . وأقدم اللغتين هي المروية . وهي لغة مدنية الجنوب التي سيطرت في أغلب الأحيان على إبريم على مدى تاريخها . وحروف هذه اللغة مقتبسة من العلامات الديموطيقية المصرية . وفي المستطاع قراءة بعض كلمات هذه اللغة . غير أننا لانفهم معناها تقريباً . وسوف تسهم اللوحات الخشبية وشقفات الأواني التي وجدت في إبريم في فك رموز هذه اللغة . أما اللغة الأخرى غير المعروفة تماماً فهي اللغة النوبية في العصر الوسيط . وترجع نصوصها المكتوبة الأولى إلى نهاية القرن الثامن الميلادي . وقد كشف موسم الحفائر الأخير عن خمسة مزامير مكتوبة بلغتين هما اليونانية والنوبية وتجرى دراستها في الوقت الراهن .



(٢) رسم حائطي في سيالة

الصورة : متحف فيينا

البعثة : البعثة النمساوية في النوبة
الموقع : منطقة السيالة
المقرر : ولهلم ايجارتنر

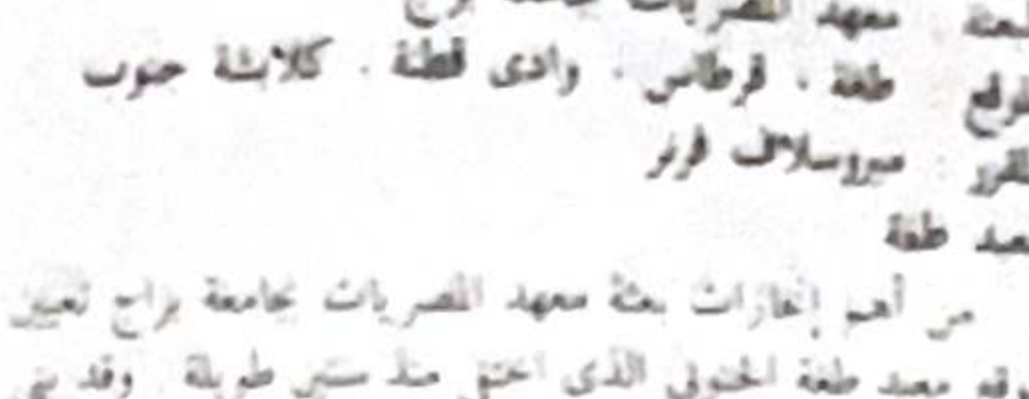
كانت مهمة البعثة النمساوية استكشاف القبور . وجمع الهياكل العظمية وفحصها فحصا علمياً وعمل قائمة بالنقوش والرسوم الصخرية في منطقة السيالة كلها على ضفتي نهر النيل .

سجلت البعثة . فضلا عن العديد من الرسوم على الصخور . التي تصور الأبقار . والزراف . والفيلة . والنعام . وغير ذلك من الحيوان . ١٤٠ تصويراً لسفن . وأتاح فحص نمط المركب المرسوم تأريخه وتصنيفه : فثمة مراكب من نمط نقادة . ومراكب من العصور الأسرية ذات كبائن في وسطها . وسفن رومانية مرتفعة الجسور . وسفن عسكرية ذات مجاديف كثيرة من عصر لاحق . وزوارق أكثر حداثة .

التاريخ تحكيه العظام

تمتد الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) الطبيعية الحديثة إلى أبعد من مجرد تحديد الجنس بقياس الجمجمة وسائر الأدلة . أو تقدير قامة الأفراد : ذلك أنها تضطلع بمهمة أكثر طموحا . مهمة إعادة تصوير التكوين الأحيائي الكامل لشعب أو لمجموعة من مجموعاته . وذلك بنوع خاص عن طريق تحديد توزيع الجنسين (الذكر والأنثى) . ومعدل وفيات الأطفال . ومراحل نمو الطفل . وطول العمر .

وفحصت البعثة في المجموعة ١٠٧ هياكل بشرية . ينتمي ثلاثون منها إلى أواخر « المجموعة ج » . ويرجع ١٣ منها إلى العصر النوبي الروماني . و ٦٤ إلى مستهل العصر البيزنطي . ولم تجد البعثة بين هياكل المجموعة ج هيكل امرأة واحدة . أما الأطفال فكان عمر معظمهم يتراوح بين سنة وست سنين . اين إذن دفن النساء ؟ ولم كان لبعض الأطفال الحق في حفلات التكريم الجنازية التي تجرى للراشدين من الذكور ؟ وكان للكثير من الرجال أسنان كبيرة بدرجة غير عادية . ومن بين هياكل العصر البيزنطي كانت نسبة الأفراد الذين فقدوا أسنانهم في سن صغيرة نسبياً (بين ٢٥ و ٣٥ سنة) مرتفعة بصورة عجيبة . أما الأطفال واليافعون فيبدو أنهم لم يصابوا بهذه الآفة : فكيف يفسر هذا التغيير المفاجئ في سن النضج ؟ هذى أسئلة لم تزل بلا جواب .


البعثة : معهد المصريات بجامعة براج
الموقع : طفة . قرطاس . وادى قطنة . كلابشة جنوب
المقرر : ميروسلاف فرنر

معبد طفة

من أهم إنجازات بعثة معهد المصريات بجامعة براج تعيين موقع معبد طفة المحفوف الذى اختفى منذ سنين طويلة . وقد بنى هذا المعبد في العصر الرومانى . ثم أعيد استخدامه في عهد المسيحيين . وكان لم يزل معروفاً حتى مستهل القرن الماضى . ثم اختفى كل أثر له من ذلك الحين . كان المعروف أنه يقع في مكان ما في سهل طوله كيلومتر واحد وعرضه نصف كيلومتر ، مدفونا تحت الطمى الذى رسبه النيل بعد بناء خزان أسوان الأول .

وبفحص صورتين فوتوغرافيتين ملتقطتين (بطريقة داكر) عام ٥١/١٨٥٠ بمعرفة الرحالتين الفرنسيين مكسيم دوكان وفيلكس تينار . استطاعت البعثة أن تحسب موضع المصدر تبعا لمنظر التل الصخرى الواقع خلف المعبد ، ومن ثم حددت موقع المعبد بالضبط .

قلعة قرطاس

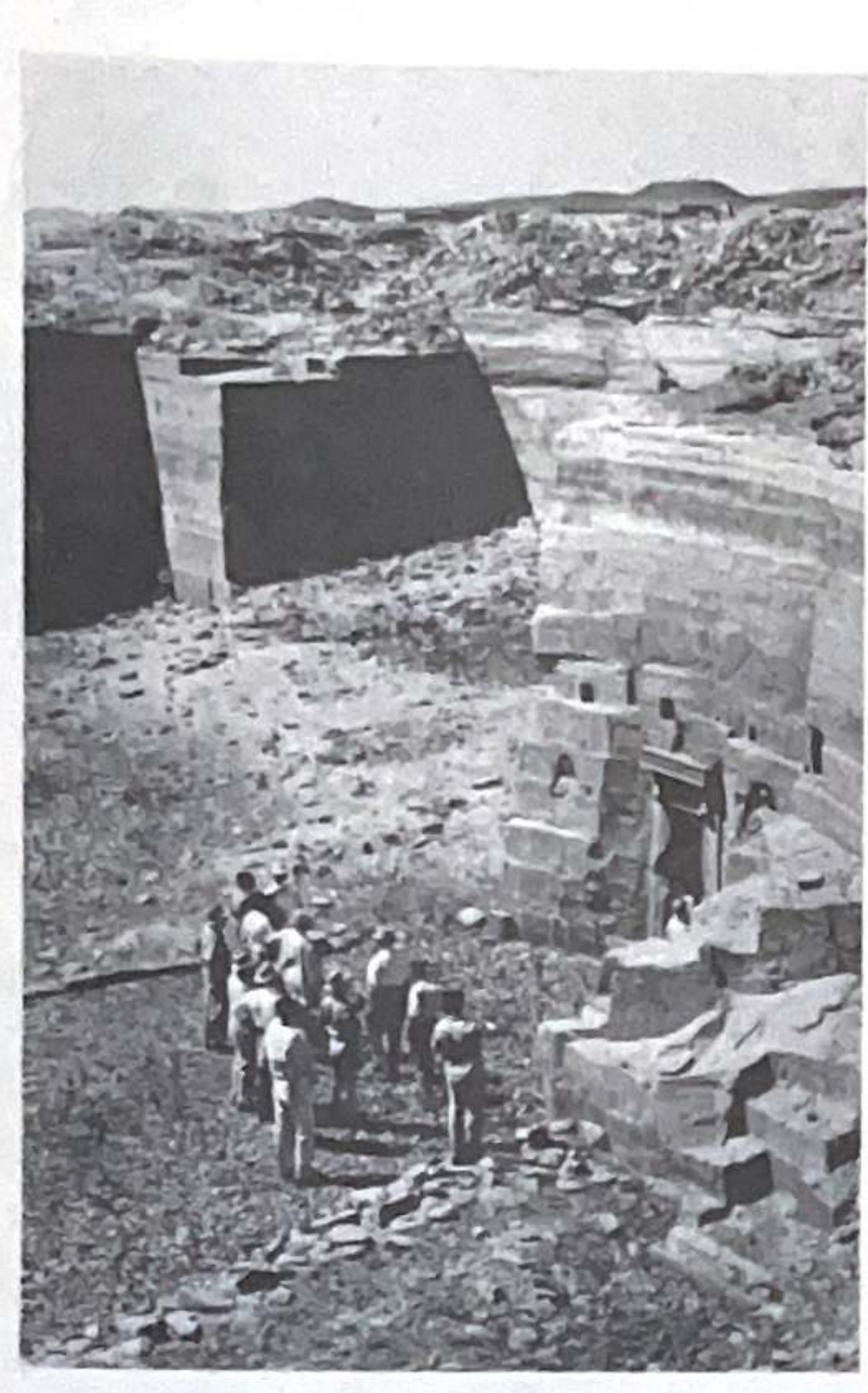
في الوقت الذى كانت فيه البعثة تؤدى عملها في طفة اهتمت أيضاً بعمل الرسم الهندسى لقلعة كبيرة قديمة في قرطاس بالقرب من المحجر الهائل الذى كان فيما مضى يعطى الحجر الرملي لبناء معابد فيلة . هذا المحجر على شكل مدرج ضخم به كوة على جانبيها تمثالان نصفيان منحوتان على جدار ، فيبدو بذلك في مظهر معبد قديم أصبح خرابا

٥٥٠ قبرا من المجموعة س

كشفت الحفريات في وادى قطنة وفي جنوبي كلابشة عن ٥٥٠ قبراً من المجموعة س من القرنين الرابع والخامس . ومن بين التحف الجنازية النفيسة مجموعة من المشغولات الفخارية والزجاجية والمعدنية ، وجواهر ، وهياكل أسرة ، وبقايا أطعمة ، وأدوات أناسية وفيرة .

بحث في الكتابات المنقوشة

أجرت البعثة دراسة للكتابات المنقوشة في الاقليمين اللذين يمتدان لمسافة خمسة عشر كيلومترا من نجع الدوم الذكر إلى نجع القرود ، ومن نجع البرية إلى جرف حسين ، واتاح لها هذا البحث تسجيل زهاء ٢٥٠ كتابة مصرية ، ومروية ، وكارية ، وأرامية ، ويونانية ، ولاتينية ، وقبطية .



(٣) محجر كرتاسى

الصورة : ماريانا - اليونسكو



الصورة : سفينة نوح ، رسم جداري ، دبيرة غرب
والتصوير : ريكس كيتنج ، باريس ؟

البعثة : جامعة غانا
الموقع : دبيرة غرب
المقرر : بيتر شيني

الحياة اليومية في نوبة العصر الوسيط

كان القصد من التنقيب في دبيرة ، مدينة العصور الوسطى الواقعة على الضفة اليسرى للنيل بين فريق سرا وأرجين الحدوليتين ، جمع أقصى مايمكن جمعه من المعلومات بخصوص الحياة اليومية في نوبة العصر الوسيط . وأثبتت الأشياء التي اكتشفت وبعض الأبنية التي أميط اللثام عنها ، بمستوى صنعها وإعدادها ، أن دبيرة كانت أكثر من مجرد قرية يسكنها فلاحون .

وقد عثر ثمة ، بخلاف المدينة ، على كنيستين ودير . كانت المدينة آهلة بالسكان في فترتين مختلفتين كل الاختلاف : أولا فترة تمتد حتى القرن السابع الميلادي ، ثم من عام ٧٥٠ إلى ١١٠٠ تقريبا . وفيما بين هاتين الفترتين هجر الموقع تماما ، وغطته الرمال التي جلبتها الرياح . وتنتمي الكنيستان إلى فترة العمار الثانية ، وهي الأهم والأكثر ثراء ، في حين أن الدير يبدو أنه يرجع إلى أيام المدينة الأولى ، أي إلى القرن السادس ، أو حتى إلى فترة سابقة على ذلك بعض الشيء .

المدينة الأولى

احتفى قسم كبير من المدينة الأولى (القرن السابع الميلادي) تحت أساسات المدينة الثانية ، فيما عدا بعض البيوت . ويبدو أن هذه المباني ، الواهية ، كانت حوانيت ومطابخ ، والراجح أنها عناصر من مجموعة أكثر رحابة تمتد أسفل المباني اللاحقة .

البيوت النوبية في الفترة الثانية

زادت أهمية مدينة دبيرة خلال فترة العمار الثانية . ويبدو أن معظم هذه المباني كانت بيوتاً سكنية . ومع أنها كانت مختلفة بعضها عن بعض كل الاختلاف فإنا نلحظ بها بعض أوجه الشبه في التنظيم والتنسيق . هذه البيوت صغيرة ، لاتحتوي في الكثير من الأحيان إلا على غرفتين ، وهي مغطاة بسقف على شكل عقد نوبي ، يؤدي إليه أحياناً سلم . والمباني كلها من طوب من طين مجفف ، فيما عدا مبنى واحداً من حجر ، كائناً على الامتداد الجنوبي للموقع . هذا الجزء من المدينة يبدو أكثر حداثة من غيره ، ويرجع تاريخ البيت الحجري غالباً إلى حوالي عام ١١٠٠ الميلادي .

أسلوب قديم في المعيشة

كانت الحياة اليومية دون شك قريبة الشبه من الحياة في ماض قريب . وكان الفرق الأساسي يتمثل في تخطيط القرى . ذلك لأن القرية النوبية هي منذ أكثر من ١٥٠ سنة مجموعة من البيوت الفسيحة المحاط كل منها بفناء ، وكل بيت مستقل عن سائر البيوت ، والبيوت منتظمة في صفوف متوازية متجهة ناحية النهر ، في حين أن القرية في العصر الوسيط كانت تضم بيوتاً أصغر بكثير ، متلاصقة ، دون أي نظام واضح .

الزراعة والنظام الغذائي

لما كانت الزراعة تعتمد على الساقية فإنها لم تكن قطعاً مختلفة عن الزراعة في الوقت الحاضر — كما لم تكن المحاصيل من قمح وذرة بيضاء تختلف عن نظيراتها حالياً ، والأمر كذلك بالنسبة إلى النظام الغذائي المقابل . وقد كشف في دبيرة عن شيء ، لعله جزء من عصارة سمسم

البعثة : المعهد الشرقي ، جامعة شيكاغو ، الولايات المتحدة الأمريكية
الموقع : بيت الوالي ، كلابشة ، قسطل
المقرر : بروس وليامز

قبور زعماء « البليمي »

بدأت الأعمال في الموقع في عام ١٩٦٠/١٩٦١ حين نظمت جامعة شيكاغو والمعهد السويسري للبحوث المعمارية بالقاهرة بعثة مشتركة في جنوب أسوان لدراسة معبد بيت الوالي المنحوت جزء منه في الصخر في عهد رمسيس الثاني من الأسرة التاسعة عشرة ، والتنقيب في مواقع أثرية أخرى حتى باب كلابشة .

وانتهى التنقيب في العديد من المواقع في منطقة قسطل بالعثور على سيراميك وأشياء تنتمي إلى ثقافة ظلت مجهولة إلى هذا الحين . وثمة قبور حجرية دائرية كبيرة تحتوي بنوع خاص على مصنوعات فخارية جميلة مزوقة بزخارف لطيطية ، وكذا أشياء ونقود من أواخر عصر الامبراطورية الرومانية . وقد تكون هذه القبور خاصة بأمراء أو زعماء « البليمي » ، وهي قبائل نعرف أنها احتلت هذا الجزء من النوبة إبان أفول الإمبراطورية الرومانية . وجاءت هذه الأواني الفخارية ، والتحف الغريبة المكتشفة فأضفت حقيقة ثقافية على قبائل البليمي التي ثبت وجودها من قبل بفضل مصادر قديمة ، وليس في المجال الأثري .

أكبر مجموعة من قبور « المجموعة أ » التي اكتشفت في النوبة حتى الآن

في يناير ١٩٦٤ ، اكتشف بعض أعضاء البعثة جبانة تضم قبورًا من « المجموعة أ » أكثر اتساعًا من القبور التي اكتشفت حتى ذلك الحين في النوبة . وكانت القبور قد نهبت وأحرقت ، الا أن أجزاء الأواني الفخارية وسائر الأشياء المتنوعة كانت كثيرة جدًا ، ومتنوعة ، وشديدة الأهمية (ومنها ما هو فريد في نوعه ، لا نظير له) ، لدرجة أنه يمكن اعتبار هذه القبور قبورًا ملكية لو أنها اكتشفت في جبانة من عصر ما قبل الأسرات شمال الجندل الأول ، أو لو بدا أنها ترجع إلى فترة أكثر حداثة .

الدليل المتمثل في مبخرة

على أن الرموز والشارات التي وجدت في هذه القبور حملت على الاعتقاد بأن هذه الملكية مصرية النمط . وقبل هذا الاكتشاف ، كانت أدلة وجود ملوك في مصر ، في العصر نفسه لا ترجع الا إلى جيلين أو ثلاثة أجيال سابقة على عهد الأسرة الأولى (حوالي ٣١٠٠ ق.م) . وثمة بفضل واجهات القصور مرسومة على أوان فخارية أرجعت معلوماتنا إلى جيل أو جيلين آخرين سابقين . وبإضافة هذه الأدلة على القوائم ، والحوليات ، والسير والأساطير اللاحقة ، استطاع الأخصائيون أن يقيموا جدولا نظريًا لمصر في عصر ما قبل التاريخ . إلا أنه لم يعثر على أي أثر ملكي يعزز بوضوح لطابل هذه العناصر المتقطعة . وقد قدمت قبور الجبانة (ل) في قسطل مجموعتين من الأشياء التي تؤيد طبيعتها الملكية ، وتساعد على تقدم معلوماتنا الناقصة عن هذه الفترة : مجموعة من مباخر مزخرفة ، من أشياء أسطوانية الشكل ، من حجر رملي أو من مزيج غريب من الصلصال والمواد غير العضوية ، مزينة أحيانًا بزخارف منحوتة . ومن بين المباخر ، مبخرة قسطل ، وهي كبيرة الحجم بنوع خاص ، منحوتة في الحجر نحتًا دقيقًا ، تذكرنا بالرسوم المنحوتة في الصخر في وادي النيل والصحاري المجاورة . وقد أصيبت هذه المبخرة بتلف كبير بفعل لصوص القبور ، ومع ذلك يمكن أن نميز عليها دون صعوبة رسمًا لصف من ثلاثة مراكب وصلت أمام قصر من القصور ، وقد لفتت صورة اثنين من ثلاث شخصيات هامة من ركاب المراكب . غير أنه بالنظر إلى السمة الملكية الأكيدة التي تتجلى في الجبانة ، يتسنى ترميم الصورة وإعادتها إلى ما كانت عليه . فالسفينة الأولى تحمل أسيرًا مقيدًا بالأغلال ومعه حارسه إلى مكان التضحية أمام واجهة القصر . وفي السفينة الثانية ملك ، يدل عليه التاج الأبيض ، تاج مصر العليا ، وصقر حورس . والملك الجالس على عرشه ، والصقر الجاثم على واجهة قصر يحمل اسمه يعتبران تصويرًا نموذجيًا للأسر الحاكمة المصرية الأولى .

أول تصوير لحدث تاريخي

أما المجموعة الثانية من الأشياء التي تعزز الحقيقة التاريخية للملوك المدفونين في « الجبانة ل » فهي مجموعة من الأواني المطلية برسوم تمثل أحداثًا واقعية أو يدعى أنها كذلك . فعلى إحدى القطع طائر يهاجم عرطوشًا مرسومًا به خطان مائلان ، يرمز إلى هيراكونوبوليس ، أكثر عواصم مصر العليا القديمة تمتعًا بتقديس الناس . هذه التذكرة بقتال هي أول تنويه بهذه المدينة ، وهي أقدم إشارة إلى وحدة سياسية في مصر ، وفي الغالب أقدم حدث تاريخي مدون .

وأهم إناء هو كأس كانت مزينة بأربع مجموعات من الزراق مطوقة بالنخيل ، بقي منها منظران فقط : نشهد في أحدهما نباتًا ، ولو أنه ذو شكل غريب ، الا أنه دون شك يرمز إلى مصر العليا . لدينا هنا أيضًا أول ذكر لمصر العليا باعتبارها وحدة سياسية . وسوف تساعد هذه القطع الجديدة على تأريخ بعض الآثار المصرية التي يشار فيها إلى أحداث جرت في هذا العصر « قبل التاريخي » . وتتيح أيضًا ، مع مبخرة قسطل التعرف على أشياء أخرى وآثر تاريخي ، عرفت جميعها في النوبة على أنها تنتمي إلى فراعنة وحدوا المنطقة على الصعيد السياسي وأضفوا عليها هوية ثقافية .

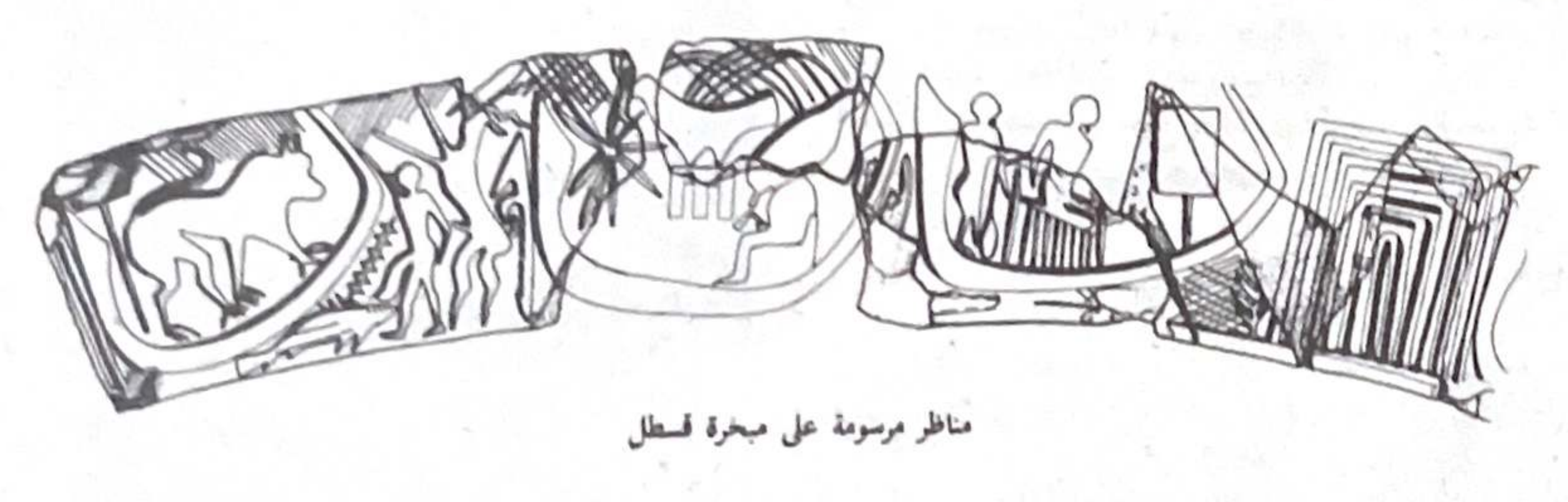
النوبة من « المجموعة أ » ، دولة موحدة

لأول مرة ، أصبحت الفترة التي سبقت مباشرة عهد الأسرة الأولى عصرًا تاريخيًا ، وذلك بفضل الدليل الذي قدمته الجبانة ل .

يخلص من ذلك حقيقة مدهشة ، مناقضة تمامًا لكل الآراء السابقة بخصوص هذا الموضوع : ذلك أن نوبة « المجموعة أ » كانت خلال تسعة أجيال على الأقل ، من

مبخرة في قسطل

الصورة : المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو ، الولايات المتحدة



مناظر مرسومة على مبخرة قسطل

٣٥٠٠ - ٣٤٠٠ إلى ٣٢٠٠ - ٣١٠٠ قبل الميلاد دولة موحدة تملك كل خصائص الحضارة ، من حكومة ، وفرعون ، وموظفين ، ودين رسمى ، وكتابة ، وصروح ، دولة قوية بدرجة أنها استطاعت توحيد شعوب لم تكن من جنس واحد . وهكذا فإن سكان «تا - سيتى» (بلد القوس) وهو الاسم الذى أطلقه قدماء المصريين على النوبة ، قد أسهموا إسهامًا كاملاً ، وعلى قدم المساواة - الأمر الذى لم يكن أبدًا موضع شك أى انسان - فى بناء حضارة ضفاف النيل .

البعثة : جامعة استراسبورج
الموقع : توماس
المقرر : جان لوكلان

يدل عدد من نقوش الدولة القديمة على أن توماس كانت مركزًا تجاريًا هامًا فى النوبة القديمة ، ومنطلقًا للدروب المؤدية إلى الواحات وإلى أسوان عبر الصحراء . وأتاحت عملية تنقيب دقيقة أجريت على طول نهر النيل ، شمال توماس وجنوبيها ، اكتشاف العديد من النقوش الحائطية التى تنتمى إلى فن التصوير الحائطى الصحراوى الشمالى ، والتى لم تكن متوقعة حتى الآن .

عمود برتوى التذكارى

كانت منطقة توماس فى نهاية العصر المروى تشكل قسمًا من منطقة حدود المملكة المروية . وفى كرانوج ، جنوب توماس اكتشفت البعثة وثيقتين هامتين : عمودًا تذكاريًا (ستيلا) ، ومنضدة للقربان وعليهما كتابات باللغة المروية العادية . وفى كل من الوثيقتين ذكر اسم برتوى ، وهو من كبار الأعيان ، وكاهن للعديد من العبادات فى المنطقة ، وبخاصة عبادة آمون . وكانت هذه الشخصية معروفة قبلاً عن طريق الكثير من النقوش باللغات المروية ، وكذا بالديموطيقية واليونانية . وثمة بعض هذه النقوش التى ترجع إلى عامى ٢٥٣ ، ٢٦٠ ميلادية تذكر أن برتوى كان معاصرًا للملك المروى تتويرديامانى ، وهذى اسهامات مفيدة للغاية فى دراسة اللغة المروية التى تجرى فى الوقت الحاضر . هذه الدراسة التى يجرى بعضها عن طريق العقول الالكترونية كانت تتناول حتى ذلك الحين قرابة ثمانمائة كتابة منقوشة ، ولكنها فى أغلب الأحيان قصيرة للغاية ، ومن ثم كانت أهمية اكتشاف نصين طويلين فى أحسن حالة من الحفظ .

توماس فى العصر المسيحى

احتفظت توماس بأهميتها حين أصبحت النوبة بلدًا مسيحيًا . وفى الشيخ داود سجلت البعثة الكثير من النقوش الأثرية من العصر القبطى ، وكشفت قبرًا استخرجت منه أربع جثث بشرية وقطعة من الحجر الرملى مرسومًا عليها الشكل الخارجى لجمل .



عمود برتوى التذكارى

الصورة : ج . لوكلان ، فرنسا

البعثة : بعثة ييل - بنسلفانيا ، الولايات المتحدة
الموقع : توشكا ، أرمنا
المقرر : وليم كيلى سمبسون

أمير ميام

من بين الانجازات الناجحة المحصلة ، مما قامت به بعثة ييل - بنسلفانيا من تعيين هوية قبر من ثلاثة قبور فى توشكا شرق شمال أبو سمبل ، واثبات أنه خاص بحقا - نفر أمير ميام (اسم قديم لاقليم فى النوبة) .

فى عام ١٩٠٥ عثر آرثر فيجال ، وكان وقتئذ كبير مفتشى مصلحة الآثار المصرية ، عثر بالقرب من القبر على كتابة منقوشة ترجمها بأنها : «رئيس ميام ، الامير (حقا) من نفر» ، ولم يدرك أن الجزء الأخير اسم علم ، «حقا - نفر» . وفى الشمال ، فى طيبة ، عصر ذاتها ، نجد صورة لأحد أمراء ميام ، يدعى حقا - نفر فى قبر آى ، نائب الملك فى النوبة فى عهد توت عنخ آمون (حوالى ١٣٥٢ - ١٣٤٣ ق . م) .

وعلى الحائط نفسه تتجلى صورة الثلاثة توت عنخ آمون ، وآى ، وحقا - نفر ، ويشترك حقا - نفر فى موكب تقدم فيه أقاليم الجنوب جزيتها . وحقا - نفر هو وحده المعين باسمه من بين الشخصيات الثلاث .

وفيما بعد ربط باحثون آخرون بين حقا - نفر المذكور فى نقوش توشكا ، وبين حقا - نفر المذكور فى مقبرة طيبة ، وإذا كانوا قد أدركوا أن الأمر يتعلق بشخص واحد ، فإنهم لم يعرفوا قبر توشكا بأنه قبر هذا الشخص . تفسير هذا بلا شك هو وجود تناقض بين الصورة فى طيبة حيث يبدو حقا - نفر فى هيئة نوبى أصيل ، له بشرة سمراء ، وعليه ثياب الجنوب ، وبين الانطباع الذى يصدر عن قبر توشكا : فهذا القبر المبنى على طراز قبور طيبة قد يحمل على الظن بأنه يخص عينا من الأعيان المصريين .

رفيق طفولة الملك

اكتشفت البعثة أيضًا أربع كتابات منقوشة غير معروفة ، على مسافة ما جنوبى قبور توشكا شرق . أحدى هذه الكتابات تبين أن حقا - نفر كان رئيس مرفق النقل على النيل ، ويتولى الإشراف على كل المواصلات النهرية فى إمارته . وثمة ثلاثة ألقاب أخرى تبين علاقاته بالبلاط الملكى بطيبة . اللقب الأول «رفيق طفولة الملك» كان يمنح لأبناء الأمراء الأجانب الذين تربوا مع أبناء الملوك . وكان زملاء الملك يستمرون فى حمل هذا اللقب بفخار عند بلوغهم سن الرشد . بعد ذلك كان حقا - نفر «حامل الكرسى الذى ينطوى الخاص بعاهل المملكتين» ، وهذا لقب يعين وضعه فى الحفلات الرسمية الملكية . وأخيرًا هذه الكلمات : «خف الملك» أو «صانع خفاف الملك» لقب يؤكد تبعيته ، ويبدو أنه يوحى بأن ميام كانت منطقة ازدهرت بها صناعة الجلود بنوع خاص .

خدم فى الآخرة

كان أروع اكتشاف تم فى البئر المؤدية إلى غرفة دفن حقا - نفر ، اكتشاف خمسة تماثيل صغيرة للأمير . هذه التماثيل الجنازية الصغيرة التى أهملها اللصوص الذين نهبوا القبور ، وحملوا كل الحلى والكنوز المدفونة مع الجثة ، كانت هى «اوشابتى» الأمير - أى أنها دمى عليها نص يشرح أنها سوف تشغل فى الآخرة مكان صاحبها كلما دعى للقيام بعمل يدوى ، وتعتبر هذه من أجمل «الأوشابتيات» التى عثر عليها فى النوبة .

عمود تذكارى قبطى

ركزت البعثة جهودها فى أرمنا غرب فى موقع كان المعتقد حتى هذا الحين أنه مجمع رهبانى ، ولكنه وصف بنوع خاص بأنه كان آهلاً بالسكان فى العصور المروية للمجموعة س والعصر المسيحى . وكان المبنى غير المتوقع وجوده والذى كشفت البعثة عنه كنيسة قبطية شبيهة بالكثير من الكنائس الصغيرة التى وجدت فى مواقع بعيدة إلى الجنوب . وفى صدر الكنيسة عمود تذكارى جنازى قبطى من طين نضج يبين أن الكنيسة كانت على الراجح دارًا للعبادة فى القرن العاشر .



تمثال جنازى صغير لحقا - نفر

الصورة : و . ك . سمبسون ، الولايات المتحدة

البعثة : البعثة الأثرية الهولندية فى النوبة
المواقع : شوكان ، عبد الله نرق
المقرر : هـ . د . شنايدر

مساكن شوكان فى نهاية العصر المروى

قامت البعثة الهولندية من ١٩٦٢ إلى ١٩٦٤ بالتنقيب فى إحدى قرى أواخر العصر المروى (من القرن الأول إلى الرابع بعد الميلاد) ؟ وتقع القرية فى شوكان على بعد كيلومترين أو ثلاثة كيلومترات شمالى معابد أبوسمبل ، وتضم زهاء ثلاثين بيتًا . ويتميز المسكن النمطى بأنه يحتوى على ثلاث حجرات ، والسقوف على شكل قبة ، وللأبواب ركائز حجرية ، وبالحوائط كوات ، وهى مزدانة فى بعض الأحيان بأفاريز مطلية بلون أحمر . ووجدنا فى شوكان بنوع خاص قدحًا قديمًا من خزف مزين برسوم ذات خطوط سوداء ، تمثل أسيرين مقيدين ومشدودين إلى وتد أمام فهد .

كنيسة عبد الله نرق

اكتشفت البعثة الهولندية كنيسة من القرن الثامن فى عبد الله نرق على بعد أربعة كيلومترات شمالى أبوسمبل ، ونقبت فيها . والكنيسة مبنية بطوب من الطين المجفف ، ومساحتها ١٥ × ١٢ مترًا ، وحوائطها سليمة حتى ارتفاع ٣,٥ مترًا . وفى الصحن المتوسط سلم من سبع درجات يؤدى إلى المنبر ، والحوائط والأسقف مزينة بمشاهد للعائلة المقدسة وصور شخصيات هامة فى الكنيسة النوبية . وقد تم إنقاذ الكثير من هذه التصاوير بفضل الأعمال التى قامت بها بعثة ترميم مصرية يوغوسلافية .

المسيح والمخلوقات المقدسة الأربعة

على الحائط الشرقى للجناح الأيمن للكنيسة هالة تضم صورة نصفية للمسيح محاطة بالمخلوقات المقدسة الأربعة المذكورة فى سفر الرؤيا : إنسان ، ونسر ، وعجل ، وأسد ، ويكمل هذا التكوين صليب يونانى - رمز حياة جديدة فى النوبة المسيحية . وإلى يسار الهالة ، صورة قسيس بيده خوصة نخيل .

سجين الجرة

فى عبد الله نرق صورة فريدة فى نوعها تمثل قديسًا على صورة جواد أبيض ، ويبدو بين سيقان مطيته رجل عار ، له لحية ، مسجون فى جرة للمؤونة ويصيح قائلاً : «ارحمنى



الرجل في الجرة ،

الصورة : هـ . هـ . شايفر . هولندة

يا الهي ! » إنها صورة تمثل حدثًا رئيسيًا من أحداث أسطورة قديمة منسية ، فيه مسيحي محبوس في جرة ، حبسه فيها بعض الكفار ، ومن ثم راح يتضرع إلى قديس أن يخلصه . وتوجد هذه الفكرة ، فكرة الحبس في إناء في الأساطير اليونانية ، والمعتقد أن العبيد في الشرق كانوا يعاقبون أحيانًا بحبسهم في « بيثوس » أى في وعاء تخزن به الحبوب .

البعثة : أكاديمية العلوم بالمجر
الموقع : عبد الله نرق
المقرر : ل . توروك

بدأت بعثة أكاديمية العلوم المجرية أعمالها في النوبة السفلى في صيف عام ١٩٦٤ ، في فترة من السنة لم يكن باقيًا بها سوى بضعة أسابيع للبدء في إجراء أعمال التنقيب . وكان الموقع الأثرى على الضفة الغربية للنيل على بعد أربعة كيلومترات شمال معابد أبو سمبل المحفورة .

وكانت أهمية آثار عبد الله نرق (وهذا اسم مزارع كان يعيش بالقرب من هذه الأماكن في الثلاثينات) قد أكدتها بعثة الاستطلاع الأثرية الأولى ؟ ومع ذلك فقد كانت ثمة مفاجأة بديعة للبعثة الهولاندية أن اكتشفت في كنيسة تقع في المنطقة الصحراوية للموقع تصاوير حائطية ترجع إلى الفترة من القرن الثامن إلى الثانى عشر ، وتضارع في أهميتها التصاوير الحائطية في كاتدرائية فرس .

وبعد أن أتمت البعثة الهولاندية عملية رفع الأنقاض من الكنيسة وإبراز التصاوير الحائطية ، غادرت موقع عبد الله نرق ، عند ذاك قبلت البعثة المجرية العرض الذى تقدمت لها به مصلحة الآثار المصرية باستئناف المشروع ، وقر عزمها على تركيز جهودها في هذه المجموعة الأثرية وجباناتها المسيحية .

الأسقف ، ورئيس الملائكة ، والقديس على صهوة الجواد

كان مركز هذا التجمع الأثرى الذى يضم الكنيسة التى كشف النقاب عنها البعثة الهولندية محاطًا بسور دفاعى . وقد اكتشفت كنيستان أخريان خارج هذا السور ، شيدت إحداهما ، وهى الكنيسة الغربية بعد تمام تشييد الكنيسة القائمة في الحصن بوقت قليل ، في القرن الثامن . أما الكنيسة الأخرى ، وهى الشرقية ، والكائنة في جبانة القرية فإنها بنيت بعد ذلك ببضع عشرات السنين . وفي القرن الحادى عشر ، زينت الكنيسة الغربية بتصاوير حائطية بأيدى فنانين زينوا أيضًا كنيسة الحصن : ويغلب أن هؤلاء الفنانين أتوا من فرس ، مركز الأبرشية التى ينتمى إليها عبد الله نرق . ومع ذلك فقد دمرت زخارف هذه الكنيسة الغربية بعد انهيار عقد القبة بوقت قليل ؟ وعثر على أجزاء من التصاوير التى انفصلت من الحوائط مبعثرة هنا وهنالك في أكوام التراب على الأرض الجديدة التى سويت بعد إعادة بناء عقد القبة . وبفضل هذه الأجزاء ، تسنى لنا أن نعيد تشكيل ثلاث شخصيات : أسقف ، ورئيس ملائكة ، وقديس على صهوة جواد .

وليس من شك في أن هذه المخلفات متواضعة جدًا بالنسبة إلى التصاوير الحائطية في فرس ، غير أنها تشهد بوجود بعض الفنون في قرية صغيرة من العصر الوسيط ، وصلات وثيقة بين كنيسة قروية وبين الفن السامى الموجود في الكرسى الأسقفى . ويوضح اكتشافها أيضًا كيف تأتى لعالم الآثار أن يعيد تشكيل صورة من صور التاريخ باستخدام أجزاء صغيرة جدًا من الماضى .

البعثة : البعثة الأسبانية في النوبة
المواقع : شيخ داود ، مصمص ، أرجين ، قصر ايكو ، أبكانارتى
المقررون : أ . ريبول بيريللو ، وم . لونجويرا ــ كامبانا .

بدأت أعمال البعثة الإسبانية في النوبة في عام ١٩٦١ . وانقسمت البعثة إلى فريقين : فريق اشتغل في شيخ داود ومصمص في النوبة المصرية ، واشتغل الفريق الثانى في أرجين ، على جزيرتى قصر إيكو وأبكانارتى في النوبة السودانية .

قلعة بتصميم رومانى

في قلعة شيخ داود المشيدة في النصف الثانى من القرن السادس ، كشفت الحفريات عن ثمانية وثلاثين بيتًا ، وكنيسة واحدة . أما تخطيط الشوارع فيشبه نظيره في أى معسكر رومانى . ووجد ثمة عدد كبير من الأشياء ، من سيراميك ، ومعدن ، وأختام وصفائح من الحجر الرملى ، وأقفال وقطع من عقود ، وبضعة منحوتات ، وآثار معمارية . ومع ذلك لم يكتشف هناك أية كتابة منقوشة .

الحفائر في مصمص

أتاحت الحفائر في منطقة مصمص إحصاء العديد من الكتابات والنقوش على الصخر من العصور التاريخية وما قبل التاريخ ، والكشف عن الكثير من الجبانات التى تحتوى على قبور المجموعة ج ، وعصر الدولة الحديثة ، ومقابر مسيحية ومروية . وتتجلى الجبانات المروية أغنى من سائر المواقع التى نقبت فيها البعثة الإسبانية في النوبة ، فقد قدمت العديد من المنحوتات المتميزة ، والنقوش ، وطاولات القرابين البديعة ، وبنوع خاص أوانى جميلة مزوقة ، منها إناء فاخر مزين بزخارف نباتية ، وأشكال آدمية .

في النوبة السودانية

تبين أن منطقة أرجين الواقعة كلها على الضفة اليسرى للنيل غنية بالقبور التى تنتمى إلى عصور مختلفة ، منذ المجموعة ج وعصر الفراعنة إلى العصر المسيحى . وتحتوى هذه القبور على أشياء لا حصر لها من مختلف العصور . فمن عصر الفراعنة وجدت قطعة رائعة من ناووس مطلى من عهد الأسرة التاسعة عشرة . ووجد بمقابر العصر المروى بضعة آنية من فضة مذهبة ، ومجموعة منوعة من الحلى ، وعدد كبير من الأسلحة .

موقعان في جزيرتين

نقبت البعثة الإسبانية جنوبًا في موقعين على جزيرتى قصر إيكو ، وابكانارتى . فعلى جزيرة قصر إيكو كشفت البعثة عن كنيستين مسيحيتين صغيرتين ، وعثرت في إحداهما على آثار بعض التصاوير الحائطية . وعلى جزيرة ابكانارتى فحصت قرية محاطة بسور محصن وقلعة صغيرة رابضة فوق تل صخرى . وأجرت البعثة في القرية اكتشافًا هامًا يتعلق بفرن لصهر المعادن ، وقمينة لحرق السيراميك .

البعثة : المعهد اليوغوسلافى لحماية الآثار التاريخية
الموقع : وادى السبوع ، أبو عودة ، الشيخ عبد القادر ، عبد الله نرق
المقرر : ميلوراد مدنيك

مهمة المعهد اليوغوسلافى الرئيسية تنفيذ العمليات الدقيقة للغاية الخاصة بتلك التصاوير الحائطية في المعابد والكنائس في مواقع مختلفة ، ونقلها وحفظها

فنانون من كل العصور

تنتشر تحف وادى السبوع في مجال زمنى شديد الاتساع ، فثمة رسوم على الصخور من عصور ما قبل التاريخ توجد ثمة بجوار نقوش بارزة مصرية وتصاوير مسيحية تزين معبدًا شيده رمسيس الثانى ثم حول إلى كنيسة قبطية . ورسم الفنانون الذين كانوا في صحبة الإرساليات المسيحية الأولى فوق النقوش المصرية البارزة صورًا رائعة للقديس بطرس ، والقديس جورج ، وصلبانا ، وغير ذلك من الرموز المسيحية . وتبدى اليوم إعجابنا بأكثر من ثلاثين صورة حائطية من وادى السبوع محفوظة في متاحف القاهرة .

الفن القبطى في أبو عودة ، وعبد الله نرق

رفعت البعثة من معبد حور محب في أبو عودة بعضًا من أقدم وأجمل التصاوير الحائطية المسيحية التى وجدت في النوبة ، منها صورة للمسيح ولأحد القديسين الشهداء . وفي الوقت نفسه اكتشفت بعثة أثرية هولاندية في عبد الله نرق كنيسة مسيحية صغيرة مزينة بالكثير من الصور الحائطية المحفوظة جيدًا ، منها هالة جميلة (حول صورة المسيح) . وقد نقلت البعثة اليوغوسلافية هذه التصاوير أيضًا إلى المتحف القبطى بالقاهرة .

الشيخ عبد القادر

كانت آخر مهمة أدتها البعثة اليوغوسلافية ، أنها رفعت من حوائط كنيسة الشيخ عبد القادر (القرن التاسع) تصاوير حائطية جميلة ، وبخاصة رئيس أبرشية نوبى بيده تصميم (ماكيت) للكنيسة ، ومشهد لمولد المسيح ، وتصوير للثالوث الأقدس .

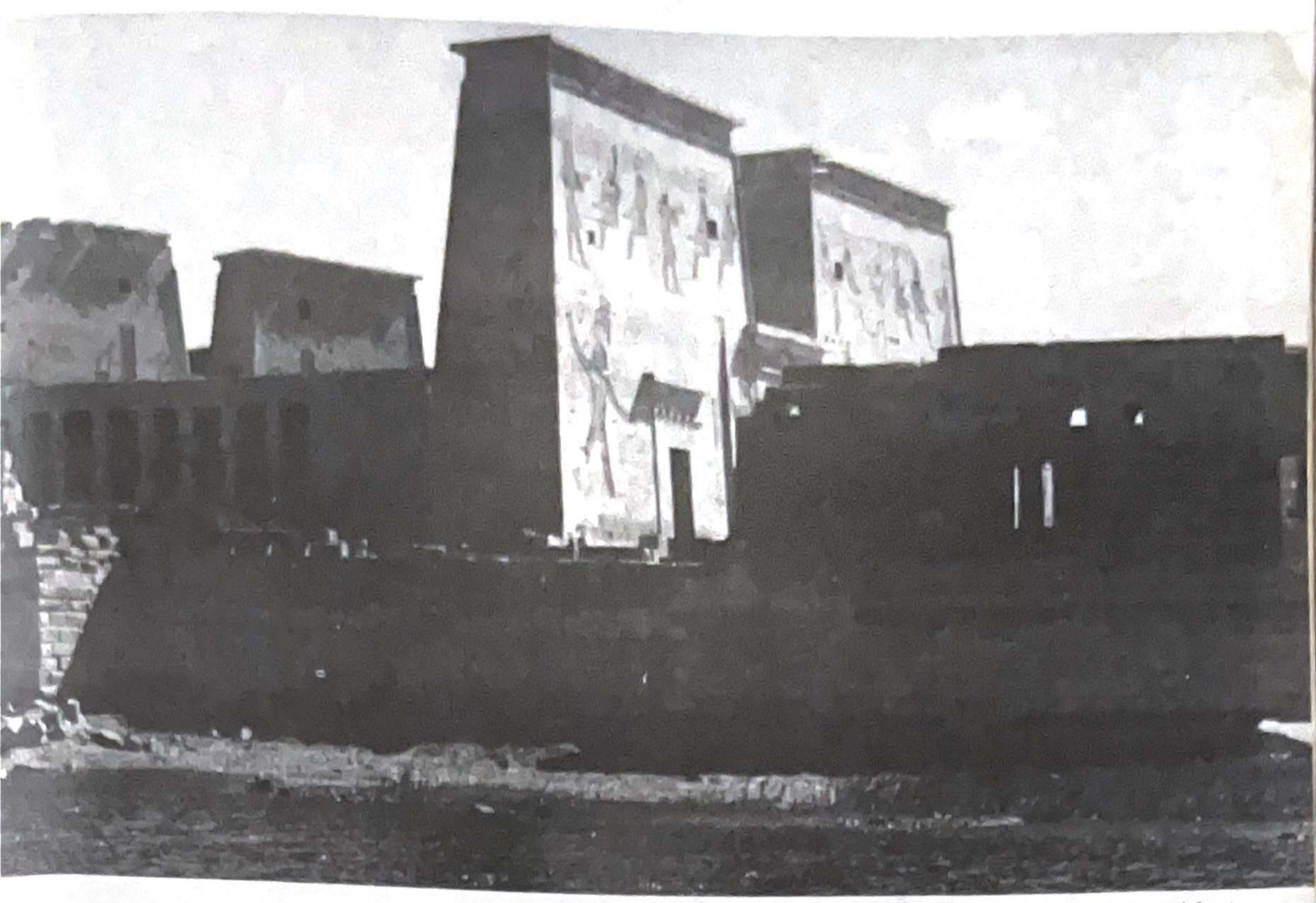
مأثرة تقنية

كان رفع هذه التصاوير الحائطية وحفظها مأثرة تقنية رائعة . وفي كثير من الأحيان كانت الصور معرضة للانهيار بمجرد لمسها . وقد أجرى المعهد اليوغوسلافى سلسلة من التجارب التمهيدية قبل الشروع في العمل على الموقع وهكذا أعطت التقنيات بعد ضبطها نتائج ممتازة في ظروف العمل الشديدة الصعوبة في الحملة النوبية .



صورة حائطية ، عبد الله نرق

الصورة : م . مدنيك ، يوغوسلافيا



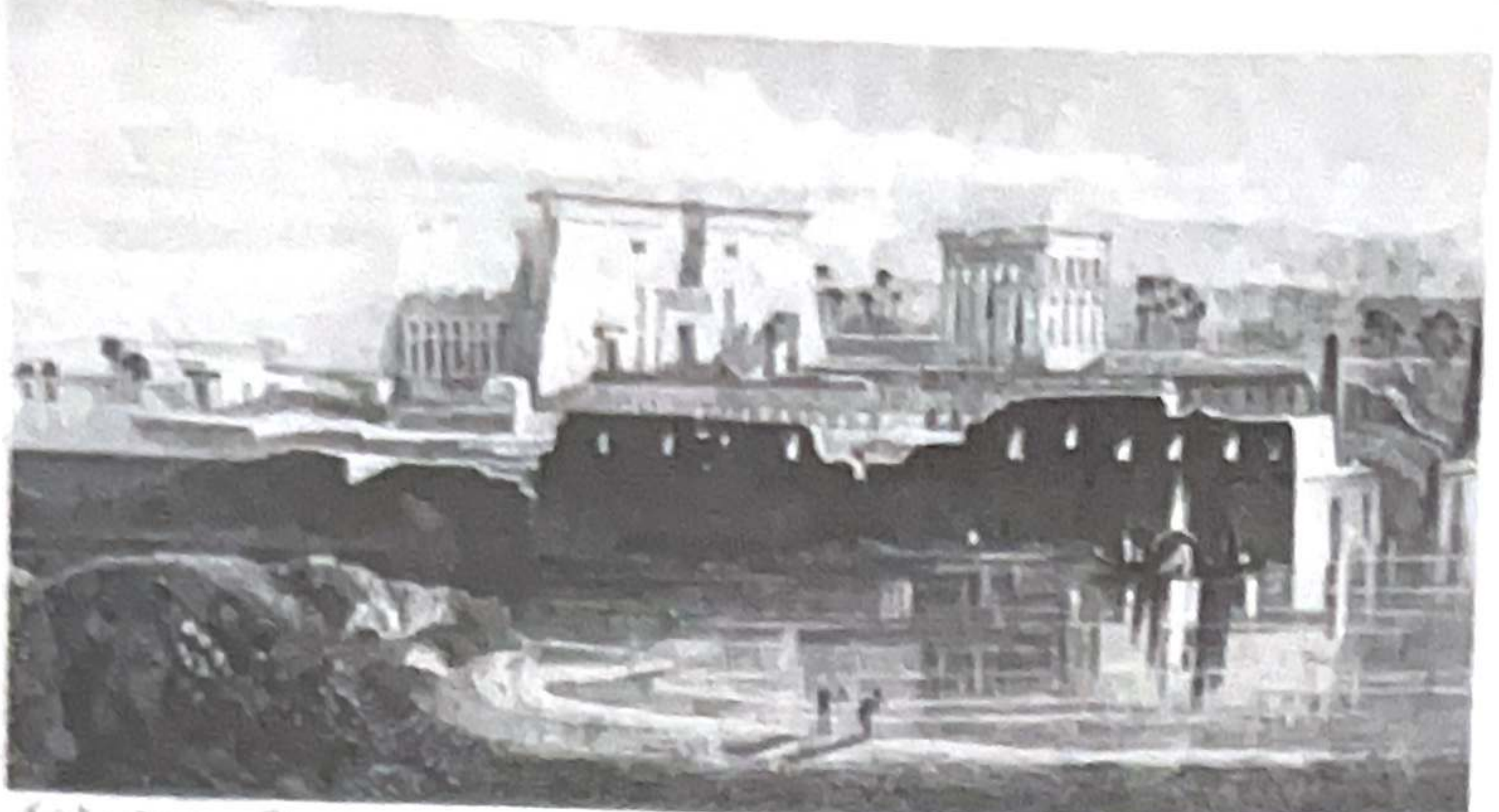
تصوير كوشوت ـ ماتزى استريو ، سبا ، روما

جزيرة فيلة المقدسة

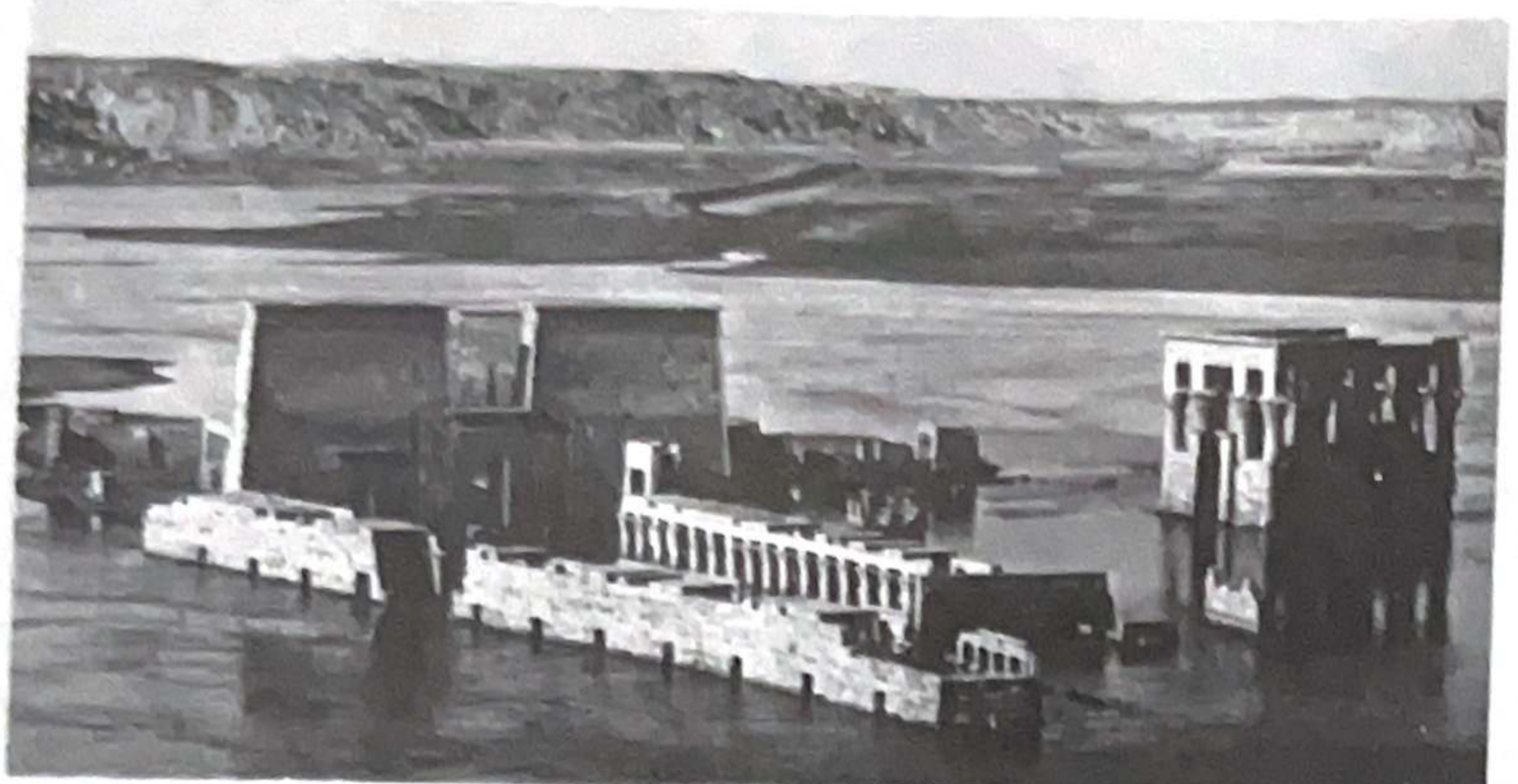
عندما بنى الفرعون نِخْتِنْبُو الأول (٣٨٠ ـ ٣٦٣ ق.م) معبدًا فى فيلة ، لم يكن فى وسع أحد أن يتنبأ بالمكانة المرموقة التى سوف تحتلها هذه الجزيرة وكهنتها فى تاريخ مصر الدينى والسياسى خلال الألف سنة التالية . وفى ٣٣٢ ق . م أى بعد ٣١ عامًا من وفاة نختنبو الأول ، قام الاسكندر الأكبر بغزو مصر . وعقب وفاته تبوأ العرش خلال القرون الثلاثة التالية حكام مقدونيون يحملون جميعًا اسم «بطليموس» ما عدا أخراهم ، الملكة كليوباطرة الشهيرة (٥١ ـ ٣٠ ق . م) . وقد اتحل البطالمة منذ البداية الديانة المصرية ، وبخاصة عبادة أيزيس وأوزيرس . وقام ببناء معبد أيزيس ـ وهو أهم آثار فيلة ـ كل من بطليموس الثانى ، فيلادلف (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق م) وبطليموس الثالث ، إفرجات (أى المحسن) (٢٤٦ ـ ٢٢١ ق . م) ، بالإضافة إلى المدخل الرئيسى للبيلون (الرواق) الأول الذى بقى من معبد نختنبو .

على أن عبادة أيزيس وأوزيريس لم تشتهر فى مصر وحدها خلال حكم البطالمة ، فقد نقل المستوطنون الاغريقيون ـ ومعظمهم تجار ـ هذه العبادة إلى بلادهم

تبين الصور المنشورة على هذه الصفحات ثلاثة أحداث فى تاريخ آثار فيلة فى العصور الحديثة . وتوضح الصورة فى أعلى الصفحة المقابلة شكل الجزيرة كما كانت فى منتصف القرن (١٩) ، بارزة فوق ماء النيل دون أن يطرأ أى تغيير على معابدها منذ القدم . ويرجع تاريخ الخطر الذى هدد فيلة إلى منعطف هذا القرن عندما بُنى سد أسوان أسفل الجزيرة ثم تمت تعليته مرتين (١٩٠٧ ـ ١٩١٢ و١٩٢٩ ـ ١٩٣٤) وقد ظلت المعابد غارقة فى البحيرة التى تكونت خلف الخزان لمدة ثلاثين عامًا (١٩٣٤ ـ ١٩٦٤) ما عدا ثلاثة أشهر فى كل عام ، تفتح فيها عيون الخزان ، وتغمر فيها الآثار بالماء . وعندما تبلغ المياه ذروتها فلا يبدو سوى الطرف الأعلى من البرجين القائمين على البيلون (الرواق) الأول لمعبد أيزيس . تبين الصورة المنشورة على الصفحة المقابلة فيلة خلال هذه الفترة ، وقد أخذت هذه الصورة عقب اغلاق بوابات الخزان بقليل ، وشروع الماء فى الارتفاع . وقد استطاعت الآثار أن تصمد أمام هذا الخطر لأن مصلحة الآثار المصرية دعمت أساساتها قبل بناء سد أسوان . وفى ١٩٦٠ أنشئ السد العالى فعاد الخطر يهدد فيلة بالتدمير النهائى ، إذ أصبحت الآثار منذ ذلك الوقت تحت رحمة المياه المحصورة بين السدين (نظرًا لأن سد أسوان ظل قائمًا) . وفى ١٩٦٥ غمر الماء معبد أيزيس بصفة دائمة إلى منتصف ارتفاعه . وأخذت التقلبات اليومية فى مستوى الماء (إلى ارتفاع ٦ أمتار) تحتُّ الآثارَ بالتدريج . وبعد دراسة العديد من المشروعات لإنقاذ الآثار ، تقرر فك الآثار وإقامتها من جديد على جزيرة اجيلكيا المجاورة التى تبرز دائمًا فوق مستوى الماء (انظر البيان الخاص بالصورة المنشورة فى ص١٣) . تبين الصورة العليا معبد أيزيس فى اجيلكيا التى زينت بمناظر طبيعية مشابهة لجزيرة فيلة .



تصوير الكسيس فيدوروف ، اليونسكو



تصوير جورج جرستر ، رافو ، باريس



بقلم: ايوويرث أ. س. إدواردز

الأصلية ، والبلاد الخاضعة لها ، مما ترتب عليه أن توطدت دعائم هذه العبادة في إقليم بحر إيجه في سنة ٣٠ ق. م. حين بسطت روما سلطانها على بلاد البحر المتوسط ، ومنها مصر ، بل لقد وصلت هذه العبادة إلى روما ذاتها ، حيث اشتهرت أيزيس بحماية البحارة ، ومن روما انتشرت إلى أقصى ربوع الامبراطورية الرومانية . ولم تظفر فيلة في البداية برعاية الامبراطورية الرومانية ، وربما كان السبب في ذلك أن الامبراطور أغسطس لم يرغب أن يظهر حبه لأيزيس لكونها مألوهة عدوته كليوباطرة . ولكنه عدل عن رأيه في النهاية ، فبنى في السنة الثامنة عشرة من حكمه (٩ ق. م) معبدًا في الطرف الشمالي من الجزيرة ، اندثر معظمه الآن ، ولكن ما بقي من عناصره المعمارية يدل على أنه كان صرحًا جميلاً .

وترك الامبراطور طيبريوس خليفة أغسطس وعدد من الأباطرة اللاحقين بصماتهم على فيلة ، بإضافة النقوش إلى الآثار القديمة . ولكن أربعة أباطرة أقاموا مبانى جديدة ، وهم كلوديوس (٤١ — ٥٤ م) الذى أقام معبدًا للمألوهة هرندوتيس ، وتراجان (٩٨ — ١١٧) الذى أقام أشهر آثار فيلة جميعًا ، وهو الكشك في الجانب الشرقي من الجزيرة ، وهدريان (١١٧ — ١٣٨ م) الذى أقام البوابة والرواق بالقرب من معبد هرندوتيس ، ودقلديانوس على الأرجح (٢٨٤ — ٣٠٥ م) الذى أنشأ البوابة القائمة في الطرف الشمالي من الجزيرة..

وفي الوقت الذى أحرزت فيه عبادة أيزيس أتباعًا لها عبر البحر المتوسط ، أحرزت تقدمًا في بلاد النوبة حتى وصلت جنوبًا إلى مملكة مروى التى تقع عاصمتها على بعد ٧٥ ميلاً شمال شرق الخرطوم ، وقام أحد ملوك مروى، واسمه ايرجاميليس بتوسيع معبد ارسينوفيس ، وترك رحالة مروى نقوشًا ورسومًا على سقف بيت الميلاد بمعبد أيزيس .

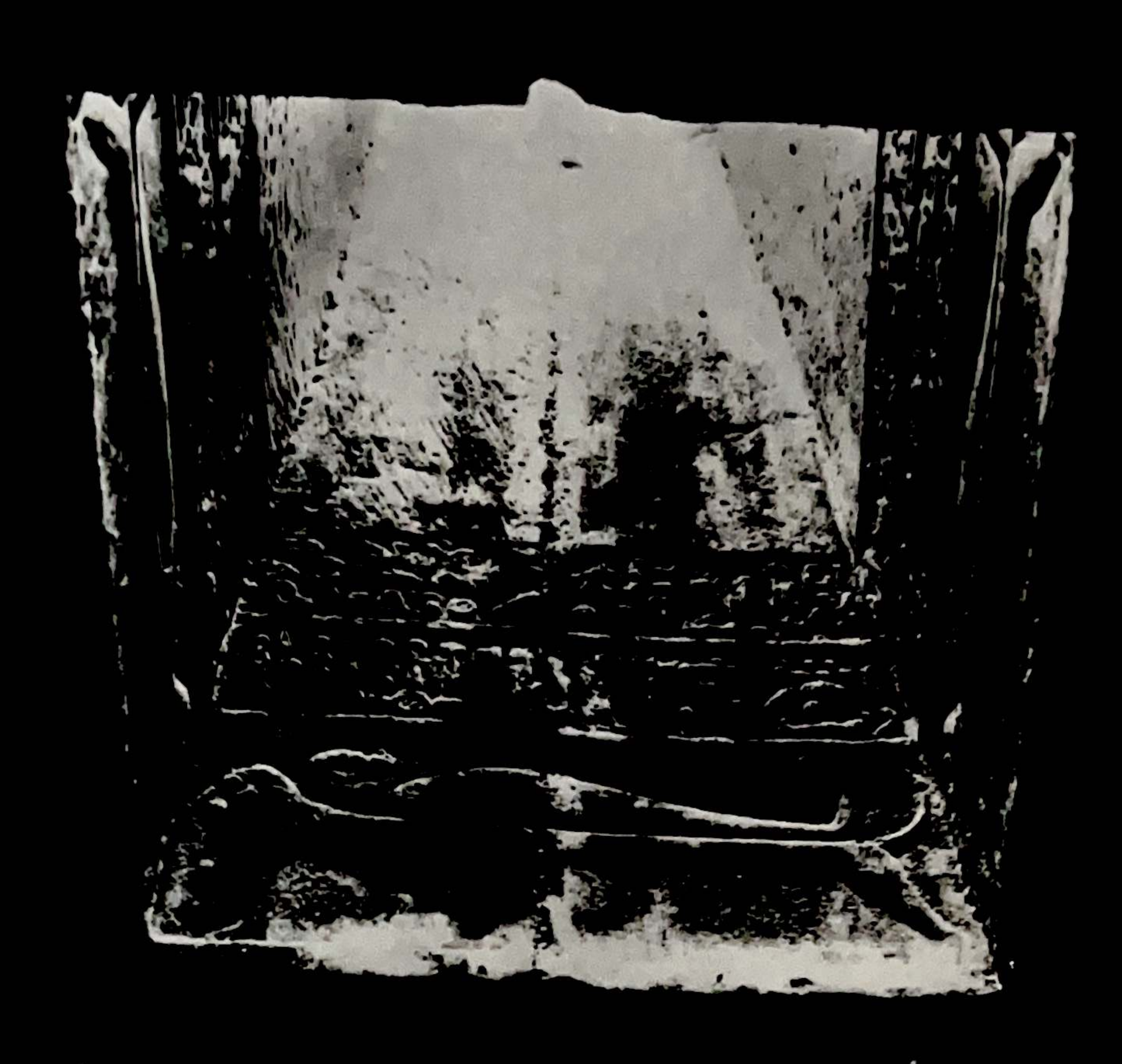
على أن عبادة أيزيس كان لها أكبر الأثر في بلاد النوبة السفلى وبخاصة في الاقليم المسمى دوديكا شينوس الممتد جنوبًا إلى مسافة ٨٠ ميلاً ابتداء من الشلال الأولى إلى مباركة ، وأصبحت فيلة هى العاصمة الدينية لسكان هذا الاقليم .

واحتفظت فيلة بمركزها الممتاز حتى بعد أن أصدر الامبراطور ثيودوسيوس الأول مرسومه في ٣٩١ م بإلغاء الوثنية في أنحاء الامبراطورية . ولا ريب أن المصلحة السياسية كانت هى السبب الرئيسى في هذا التسامح الدينى إزاء فيلة . ذلك أنه كان من المحتمل أن يقابل اغلاق معابد فيلة بمقاومة عنيفة من جانب سكان النوبة ، وبخاصة من البلميس وهم قوم محاربون من الصحراء الشرقية ظلوا زمنًا طويلاً يثيرون القلاقل في وجه السلطات الرومانية بإغاراتهم على صعيد مصر . وفي ٤٥١ — ٤٥٢ م قاد ماكسمينوس — قائد الامبراطور مارسيان — حملة ضدهم وأوقع الهزيمة بهم .

البقية ص ٧٠

ايوورث أ . س . ادواردز: من المملكة المتحدة . شغل منصب أمين الآثار المصرية حتى أحيل إلى التقاعد في ١٩٧٤ . كان عضوًا في لجنة الأثريين المصريين ، ومهندسى المناظر الطبيعية ، التى عبئتها اليونسكو ووزارة الثقافة المصرية لإبداء المشورة حول نقل آثار فيلة إلى جزيرة أجيلكيا . ألف العديد من الكتب ومنها أهرام مصر .

أسطورة إيزيس

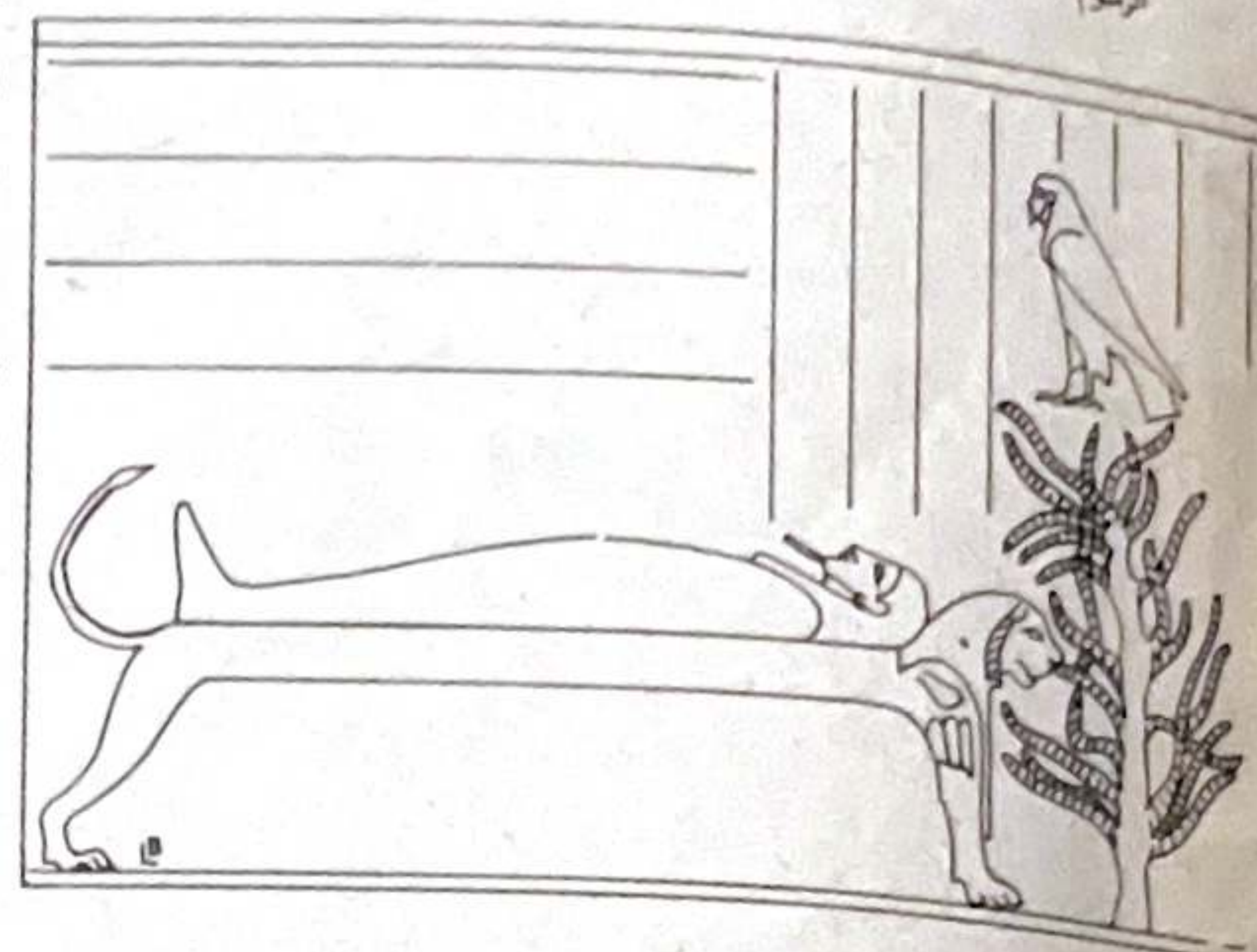


وأوزريس

بقلم: فرانسوا دوماس

تبين لنا هذه الرسوم المأخوذة من النقوش البارزة على جدران المعابد الفرعونية حادثين من أسطورة المألوه أوزيريس. المنظر الأسفل مأخوذ من معبد فيلة وهو يصور كاهنًا يسقى تمثالاً للمألوه مصنوعًا من طمى النهر، وقد نبت فيه عساليج (جمع عسلوج) الشعير. وهو يذكرنا بأن أوزيريس هو اله الزراعة، ورمز التربة المصرية، قبل أن يصبح حاكمًا للعالم السفلى، ويُوهب حياة جديدة فى الآخرة. وكان سيث قد قتل أخاه أوزيريس ومزق جثته إربًا إربًا ولكن زوجته الوفية أيزيس منحته حياة جديدة بحيث أصبح رمزًا لانتصار الكائنات الصالحة الربة على الموت. وفى القرن الأول الميلادى وصف لنا أسطورة أوزيريس الكاتب الاغريقى بلوتارخ الذى زعم أنه سمعها مباشرة من الكهنة المصريين. فى أسفل: رسم من معبد دندره يطابق وصف بلوتارخ لقبر أوزيريس فى معبد أباتون وهو معبد منيع فى جزيرة بجه الواقعة فى النيل. يرى فى الرسم مومياء أوزيريس وهو مستلق على سرير جنائزى، وقد ظللته شجرة يجثم فوقها «باى» (روح) المألوه

الرسوم: تصوير ب. لتريك، ف. دوماس، فرنسا



يتسلل ضوء الشمس من خلال فتحة فى سقف معبد دندره، ويقع على جثمان أوزيريس المستلق على سريره الجنائزى. يذكرنا هذا المنظر الرمزى بموت وبعث واحد من أشهر المألوهات المصرية، ألا وهو أوزيريس، رب العالم السفلى.

تصوير: هنرى ستيرلين، جنيف

كان منظر الشلال الأول فى فجر التاريخ مختلفًا تمامًا عما هو عليه اليوم. إذ كان النهر يجرى ملتفًا كالدوامة وسط الصخور الجرانيتية الوردية اللون التى صقلتها المياه، وأحالت لونها إلى السواد. وعلى كلا جانبى النهر اختلط ركام كبير من النحاس والتبر بالصخور ذات الألوان الداكنة اللون. وبرزت من بين هذا الخليط من الألوان والأصوات جزر من كل الأحجام.

وكان فى المجرى الأعلى من النهر عند أسوان وجزيرة الفانتين، وعلى الجانب الشرق من النهر ثلاث جزر متجاورة: جزيرة كونوسو الصخرية حيث نقش الزائرون من الملوك والموظفين نقوشًا مختلفة فى عهد الفراعنة، وجزيرة فيلة التى ظل معبد أيزيس قائمًا فيها إلى ستين أو سنة خلت، وجزيرة بجه التى قام فيها معبد أباتون أو معبد أوزيريس فيما مضى (انظر المقال ص ٤٦). وعلى الرغم من أننا لا نعرف على وجه اليقين كيف خصص هذا المعبد المهيب لعبادة أيزيس على حدود النوبة، فإن الأساطير تزودنا بتفسير خاص لهذا الأمر.

وبيان ذلك أن أوزيريس كان يحكم مصر فى غابر الأزمان، وعلم أهلها الزراعة، وتربية الحيوانات، وأصول العدالة. وتزوج أخته أيزيس وكانت امرأة ساحرة، عاقلة، قوية، تهيم بحب زوجها، ولكن أخاهما سيث، إله الصحراء الجرداء، كان يختلف عنهما، إذ كان عاجزًا عن الاتيان بأى عمل خلاق، كما كان سىء الأخلاق.

وفى ذات يوم أقيمت إحدى الولائم، فما كان من سيث إلا أن وضع أوزيريس فى نعش، وألقاه فى اليم. ومضت أيزيس تبحث عن جثة زوجها، فعثرت عليها فى بيلوس، وعادت بها إلى مصر حيث اكتشفها سيث فى مستنقعات الدلتا، فمزق الجثة إلى أربع عشرة قطعة، ونثرها فى النيل.

وبحثت أيزيس عن الجثة فى جميع أنحاء البلاد، وجمعت شظاياها المتفرقة من كل مكان. ولكى تحبط النوايا السيئة لسيث تظاهرت بأنها دفنت كل جزء من الجثة حيث وُجد، حتى يستحيل على سيث أن يعرف بالضبط أين دفن أوزيريس. ومن هنا تختلف الأساطير حول هذه النقطة فبعضها يقول أنه دفن فى أبيدوس حيث وجدت رأسه، وبعضها يقول أنه دفن فى منف أو بوصير أو تابوصير، والبعض الآخر يقول أنه دفن فى معبد أباتون بفيلة. أما الكهنة المحليون فكانوا يعتقدون أنه دفن فى بجا وهى الجزيرة المقدسة كما تسمى فى النقوش الموجودة بمعبد أيزيس.

وهنا - أى فى جزيرة بجه - كان يوجد معبد لم يسمح لأحد بالاقتراب منه سوى فئة صغيرة من الكهنة المكلفين بأداء الطقوس الجنائزية. وهذا هو السبب فى تسمية ذلك المعبد باسم «أباتون» أى المكان المنيع الذى يحظر الوصول إليه. وكان القبر العارى من كل زينة على الأرجح يقع فى داخل غيضة مقدسة تنمو فيها أشجار السنط والعناب، وتظلله شجرة «النبق» التى كتب عنها الكثير ولكن لم يُعرف نوعها قط، وهى على كل حال أطول من شجرة الزيتون. وكان فى الغيضة ٣٦٥ لوحًا لصب قربان اللبن عليها كل يوم من أيام السنة. وفى أعلى الشجرة كان يجثم «باى» أوزيريس والباى عنصر أساسى من عناصر شخصية الآله. ولكى يتسنى للباى أن يشرب لبن الحياة باستمرار غطيت الألواح بسويقات النخيل المورقة لكى تحفظ اللبن طازجًا. وكان كبير الكهنة يؤدى هذا الطقس الدينى كل يوم، كما كان يقوم أيضًا بأداء الطقوس الدينية فى معبد بجه الذى لا تزال أطلاله قائمة فى الجنوب الشرق من الجزيرة المواجهة لجزيرة فيلة.

وكان المفروض أن تظل الجزيرة الطاهرة، فى صمت أبدى حتى ينام الآلهة دون أن يزعجهم أحد. ولم يكن الكلام بصوت عالٍ محظورًا فحسب، بل كان قرع الدفوف - وهو عمل يرمز إلى الفرح - محظورًا أيضًا. ولم يكن يباح لأحد أن يغنى بمصاحبة القيثار أو الفلوت. وتقول الأسطورة أن الطيور والأسماك ظلت بمنأى عن الجزيرة، لأن صيدها كان محظورًا حظرًا باتًا.

وكانت أيزيس تزور قبر زوجها كل عشرة أيام لصب اللبن وتزيين القبر، وتعبر النهر الذى كان ضيقًا فى ذلك المكان على سفينة صغيرة تدعى «الحامية». وكانت الطقوس الدينية تتسم بطابع الهيبة والوقار فى اليوم الثانى عشر من شهر إبنى الذى يعادل - فى حساباتنا - اليوم السابع عشر من شهر يولية. وعلى الرغم من قلة المعلومات التى تحت أيدينا، فإنه يبدو أن الغرض الرئيسى من هذه الزيارة هو تقديم القربان الجنائزى. ولا تزال تفاصيل هذا القربان غامضة، ولكن فى وسعنا أن نحزر بأنه اللبن. وتقول بعض النقوش إنه الماء. وكيفما كان الأمر فإن الثابت أن هناك كلمة واحدة فى اللغة المصرية القديمة تدل على اللبن والماء معًا. ومن هنا يصعب علينا أن نجزم بما كان يحدث خلال هذا الطقس.

وكانت الطقوس الخاصة بجزيرة فيلة ترجع - بقدر ما - إلى الطبيعة الجغرافية للجزر الواقعة عند الشلال. ومع ذلك فمن المؤكد أن طقوس أوزيريس الكبرى التى كانت تقام فى المدن الأخرى التى شاعت فيها عبادة أوزيريس مثل ادفو، ودندرة، وابيدوس، ومنف، وسايس، وبوصير، كانت تقام أيضًا فى فيلة. وفى أحد ◀

فرانسو دوماس: من فرنسا، أستاذ المصريات بجامعة مونبليه، والمدير السابق للمعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة. ألف العديد من المقالات والكتب من بينها رسالة بعنوان «بيوت الميلاد فى المعابد المصرية» وكتاب «حضارة مصر الفرعونية». رأس بعثة إلى وادى السبوع فى أثناء الحملة الدولية لانقاذ آثار النوبة.

كانت الرضاعة الرمزية تمثل عند قدماء المصريين الانتقال من طور إلى طور آخر فى الحياة. وحتى أصبح الأمير الصغير ملكًا انتقل من عالم الفناء إلى عالم البقاء، واستمد الحياة والحكمة من اللبن المقدس للنهوض برسالة الملك على الأرض.

إلى اليسار: المألوهة النوبية أنوكيس التى كانت تعبد فى جزيرة الفانتين مع المألوه خنوم، ترضع رمسيس ٢. فى أقصى اليمين: يرى الفرعون وهو يرضع من لدى المألوهة ايزيس، رمز الأمومة التى ربت ابنها حورس فى مستنقعات الدلتا خشية أن يتعقبه سيث فيقتله. تبين الصور نقوشًا بارزة من معبد بيت الوالى الذى تم إنقاذه من مياه النيل خلال الحملة النوبية.



تصوير مركز الوثائق لمصر القديمة، القاهرة

هذه الطقوس المعروف باسم «حراسة الساعات» كان الآلهة يقفون حول جثة أوزيريس ويحرسونها ١٢ ساعة ليلاً و ١٢ ساعة نهارًا، وكل منهم يتحدث بدوره إلى جثمان أيزيس بكلمات من شأنها أن تبعثه إلى الحياة.

ومن الصعب علينا أن نلخص هذا الحديث الطويل الذى نعرفه من النسخ المنقوشة على جدران فيلة، وادفو، ودندره. ويزيد من صعوبة الأمر أن كاتب النقوش يعود دائمًا إلى أسلوب الإشارة بدلاً من العبارة، فتراه يحذف المعلومات الحيوية لأن ديانة أوزيريس كانت تنطوى على أسرار دينية بالمعنى الذى تدل عليه الكلمة الاغريقية ولذلك كان من المحظور افشاؤها. وجدير بالذكر أن مقال بلوتارخ عن «ايزيس واوزيريس» ـ وهو المؤلف الوحيد الذى يقدم لنا رواية متماسكة عن هذه الأسطورة ـ سكت عن ذكر حوادث معينة تتسم بطابع السرية المطلقة. وهناك ترنيمة مشهورة فى تمجيد أوزيريس منقوشة على عمود حجرى يوجد الآن فى متحف اللوفر، وهذه الترنيمة آية فى مراعاة التبصر والحكمة لأنها تشير إلى موت وبعث الآله بعبارات غامضة، ولكن بلوتارخ لا يحدثنا بأى كلمة عن هذين الحادثين.

ومع ذلك فإنه يروى أن أيزيس قالت فى «حراسة الساعات» هذه الكلمات: «لقد غطيتُ من كان عاريًا على ضفاف نديت». ومن هذه الكلمات نستنتج أن أوزيريس جرد من ملابسه بعد قتله فى المكان المشئوم المذكور فى نص يرجع تاريخه إلى عصر الأهرام ويتضمن هذا النص وصفًا لبحث ايزيس عن جثة زوجها حيث قالت: «لقد طرت فى طول البلاد وعرضها، وعبرت المحيط الأزلى، وعرفت الشىء بالقرب من النهر». وهذه العبارة تشير بوضوح إلى جهود ايزيس الدائبة لجمع أشلاء زوجها والنجاح الذى توجت به هذه الجهود فكلمة «الشىء» تشير إلى جثة أوزيريس الذى عثرت على اشلائه على ضفاف النهر.

وليس فى هذا النص أيضًا وصف لطقوس البعث التى هى أقدس الأسرار كلها. ويمكننا أن نتصور أن الهواء الذى أثارته أجنحة أخته أيزيس، ونفثيس، نفخ الحياة فيه، فالنص يقول باختصار: «اجنحتهن ترفرف عليك». وإذا قارنا بين مختلف روايات الاسطورة استطعنا أن نتصور ما حدث بالفعل. ذلك أن المشهد المصور على قبر الكاهن الأكبر بينوسيريس ـ وفيه نقوش مشوهة بشكل غريب ـ يحدثنا أن الذهب الذى صنع منه اله الشمس «خبرى» لعب دورًا فى بعث أوزيريس كما لعب الماء الذى أمده بالقوة، فبعثت فيه الحياة. يقول المشهد:

[يسر] الماء المقدس الذى يهواه قلبه

ينمو نباتُ «الايوا» الفخم، ويخضر عوده بالحياة

وعندما يخضر عوده بالحياة، فإن البلاد تنمو مخضرة

وهكذا يعود أوزيريس البرىء إلى الشباب

وقد استُخدمت قوةُ الماء المجددة للحياة فى طقس رمزى يُؤدَّى خلال مهرجانات أو أعياد شهر كياك الذى يقابل بالتقريب شهر ديسمبر وكان الكهنة يحتفلون فى هذا الطقس بذكرى عودة أوزيريس إلى الحياة وكانت هذه الأعياد واسعة الانتشار وعظيمة الأهمية فى حياة المصريين لدرجة أن المسيحيين الأقباط استبدلوا بها فى نفس الشهر طقسًا خاصًا بمصر يعرف باسم «المزمور المقدس لشهر كياك».

وفى أثناء الاحتفالات الأوزيريسية فى هذا الشهر كانوا يصنعون تمثالاً صغيرًا لأوزيريس من رمل النيل وطميه ويخلطونه بالتوابل، ثم يزرعون فيه حبوب الشعير، ويروونها بالماء كل يوم حتى تنبت. وكان هذا رمزًا لعودة أوزيريس إلى الحياة، كجزء من الدورة الكونية العظمى للطبيعة. وكان من حق كل ميت دخل فى ديانة أوزيريس أن يعود للحياة مثل أوزيريس. ولذلك وجدت فى عدة مقابر ملكية إطارات خشبية كبيرة على شكل أوزيريس، مزدانة بتاجه الخاص. وكان

خريطة رسمت فى ١٩١٣ للجزء الجنوبى من الشلال الأول وهى تبين الجزر فى البحيرة الواقعة خلف خزان أسوان فى الصيف بعد أن فتحت بوابات الخزان، وهبط منسوب الماء فى البحيرة.

رسم ب. لتزيك، ف. دوماس، فرنسا

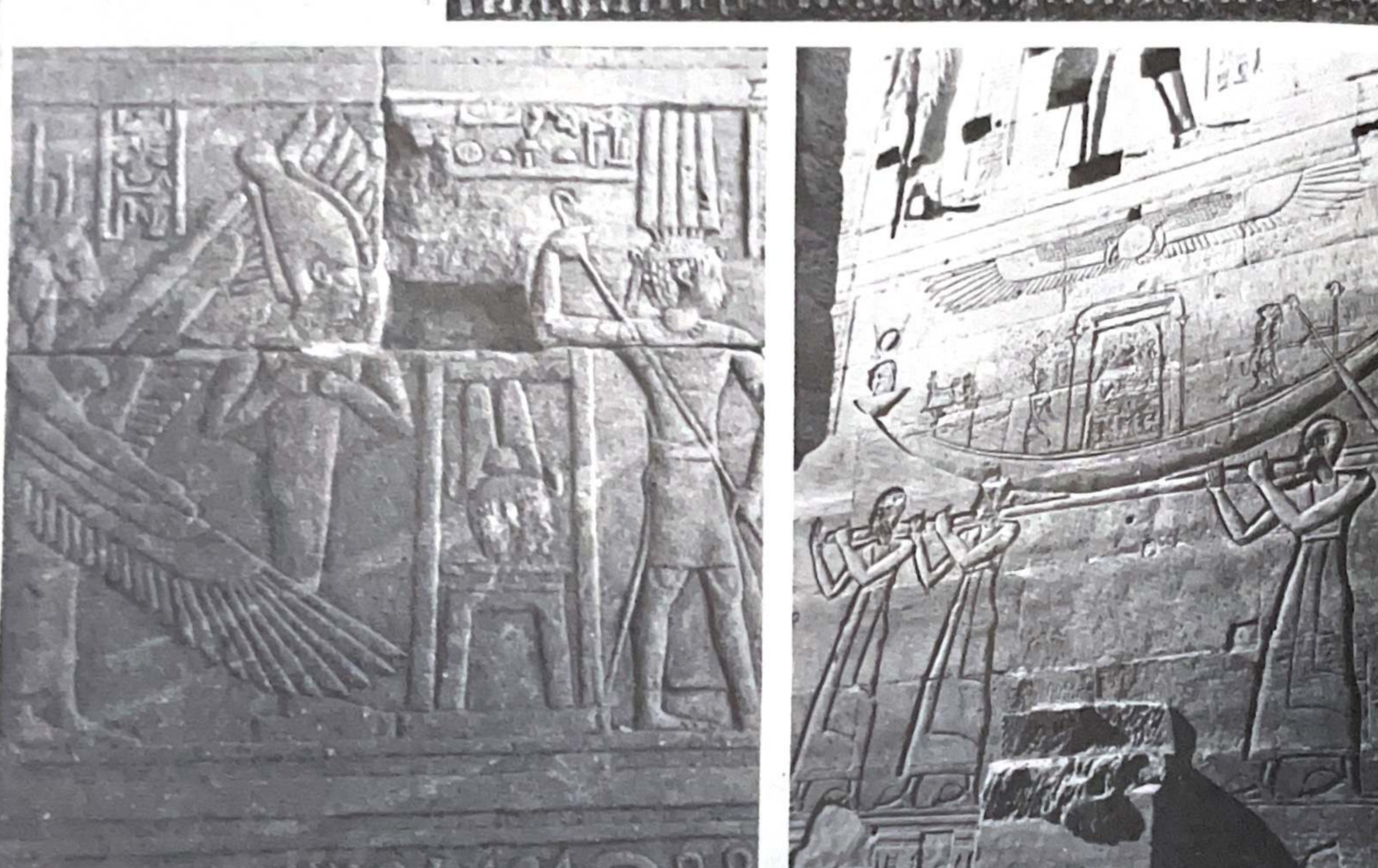


الساحرة ذات الأجنحة

استطاعت الساحرة الكبيرة ايزيس (أعلى) أن تعيد أخاها وزوجها أوزوريس إلى الحياة عن طريق إثارة الهواء بأجنحتها. ويلاحظ أن ايزيس تصور غالبا على جدران القبور المصرية بأجنحة مبسوطة. وأرى في هذا النقش البارز الموجود حاليا في متحف اللوفر. وهي تظلل عزيزها جثمان رمسيس ٣. وقد نحت في هذا النقش البارز على معبد ايزيس في فيلة السفينة المقدسة التي كانت تعبر عليها كل عشرة أيام إلى جزيرة بيجه القريبة لتقدم قربان اللبن عند قبر أوزيريس. تبين الصورة المأخوذة من أحد النقوش البارزة في معبد ايزيس بفيلة (أسفل) الحفنة التي تحتوي على رأس أوزيريس المتوجة وبالقرب منها موميات الآلهة تحميها أجنحة ايزيس







الجزء الأسفل من هذه الإطارات مزدانًا بالغاب أو الكتان المضفور ومغطى بالشعير النامى ، والاطارات كلها ملفوفة فى ضمادات كالمومياء . وجدير بالذكر أن بلوتارخ يشير إشارات عابرة إلى هذه العادات فى كتابه عن «ايزيس وأوزيريس» .

وفى قبر أوزيريس بفيلة الذى يضم رفات الآله ، على سقف معبد ايزيس ، صورة غاية فى الغرابة توضح لنا خلق أوزيريس النامى فى شهر كياك ، إذ يقوم تمثال صغير على شكل مومياء على شيء يشبه الرصيف . وفى أعلى المومياء ينمو عدد من السويقات تنتهى بسنابل من القمح يرويها أحد الكهنة بعناية واهتمام ، وفى أعلى نقش مكتوب نصه ما يلى : «إنه السر المجهول الذى يولده ماء الفيضان» وجدير بالذكر أن كل النصوص والآثار الجنائزية الملكية ، تتفق جميعًا فى أفهامنا المعنى العميق لهذه الطقوس التى تؤكد الخلود لكل أتباع الآله العليل ، بل لقد ذهب الكهنة المصريون إلى حد الاعتقاد بأن حب الشعير هو الجوهر الحقيقى لجسد اوزيريس .

دعنا الآن نتخيل كيف بدت جزيرة فيلة للرحالة وعلماء الآثار المصرية فى القرن التاسع عشر . لقد كانت قرية أسوان الصغيرة ، وقبائلها البدوية المحتشدة فى الجنوب هى البوابة الحقيقية لأفريقيا الاستوائية . لقد كانت أشجار النخيل والسنط والدوم تنمو جنبًا إلى جنب كما كانت أشجار الحسك تزدهر على جنبات القنوات ، وعلى حافة الصحراء . لقد كان ذلك العالم يبدو مختلفًا كثيرًا عن عالم مصر إذ كانت الرمال ذات اللون النحاسى والصخور السوداء تبرز من نهر فياض يزخر بالماء الذى يشبه لونه لون الآجر .

ولو أن السائح اتجه جنوبًا إلى نهاية الشلال لرأى إلى الشرق جزيرة فيلة الصغيرة بارزة بين أشجار النخيل والغياض ، بكل ما فيها من أعمدة وأروقة التى لا تبدو ألوانها الزاهية الآن إلا فى حفنة من اللوحات الواردة فى مؤلفات العالم الألمانى بالآثار المصرية ، برتشارد لبسيوس (١٨١٠ ـ ١٨٨٤) .

وعلى الرغم من أعمال السلب والنهب التى قام بها جنود جستنيان ، فقد هيمنت ايزيس ـ فيما يبدو ـ على المناظر الطبيعية المتناسقة التى صنعها مهندسو العصر القديم . ذلك أن حجم الجزيرة وتنسيقها وتناسب أجزائها يوضح تمامًا الصفات الإنسانية الجليلة التى امتازت بها مألوهاتها وأسرارها الشفافة : ملك مقدس يمتاز بالعدل والإحسان ، تفتك به يد الخيانة والغدر ، وامرأة وفية مخلصة ، وهبت الذكاء والسلطة الملكية تجمع أشلاء زوجها وتعيده إلى الحياة ، وتربى ابنها كى يخلف أباه بعد هزيمة عدوه . إن ايزيس وأوزيريس سوف يمنحان الخلود لكل من حكم بالعدل مثلها . واذ كانت هذه القصة تمثل أشد ما تحتاج إليه الإنسانية من المعانى السامية فلا عجب أن نرى هذين الملكين اللذين حكما حدود مصر الجنوبية يغزوان كثيرًا من أنحاء أوروبا ابتداء من الجزر الإغريقية إلى حدود ألمانيا النائية ، وذلك بفضل أسطورتها الفياضة بالالهام ، والزاخرة بالآمال .

فى هذا النقش البارز الموجود بمعبد ايزيس فى فيلة ، يبدو أوزيريس ـ رب الموتى ـ على هيئة مومياء ، معصوبًا بالضمادات ، ومغطى بكفن . وعلى رأسه تاج مزدان بالريش الطويل والقرون الملتوية ، ويمسك صولجانًا وسيفًا . إلى اليمين تقف ايزيس وبيدها اليسرى مفتاح الحياة الرمزى وهى تلبس قرص الشمس الموضوع بين قرنين من قرون البقر ، وهو لباس الرأس عند هاتور ، مألوهة الحب التى تعادل أحيانًا ايزيس .

تصوير : هنرى ستارلين ، جنيف



وبفضل حملات إنقاذ النوبة ازدادت الآن معرفتنا بالدور الذى لعبته القلاع النوبية فى تاريخ مصر. فقد كشفت حفائر بوهن ومرجيسة وأركت أو سمنة جنوب عن توافق تصميمات القلاع توافقًا تاما مع الموقع، وتعقد عمارتها تعقدًا عجيبًا، بأسوارها المزدوجة، العليا والسفلى، ومنحدراتها، وخنادقها، وحصونها البارزة، المستديرة منها والمستطيلة، وكوات الرماية التى تتيح كل زوايا الرمى الممكنة، ومتانة جدرانها الخارجية التى يصل سمكها إلى ثمانية أمتار عند القاعدة.

كذلك أتاحت هذه الحفائر فهم حياة الحاميات فهمًا أفضل. فهذه الحاميات المنعزلة فى بلد معاد لا تكتفى بأن يتوفر لها الحماية بفضل الحصون، ولكنها تنال الحماية أيضًا بتدوين نصوص التعاويذ السحرية على أوان وتماثيل صغيرة، «تُقتل» ثم تدفن على الطرقات التى لا بد أن يمر عليها العدو، فهى «ألغام» سحرية حقيقية. ولقد عثر على مثل هذه النصوص فى كل من مرجيسة وأورونارق. وليس من شك فى أن القلاع كلها بها نصوص مماثلة.

ولما كانت الفرق العسكرية تقضى ثمة سنة بطولها فإنها كانت تعنى بحدائق وكذا دون شك ببساتين تُجنى منها خضرًا وفاكهة بالإضافة إلى «الجرايات» التى ترسل إليها بانتظام من مصر فى طرود عثر على آلاف من الأختام التى تقفل بها. وفى مرجيسة استخلص فى شمال القلعة مساكن «المدنيين» الذين كانوا دون شك ينظمون عمليات المبادلة مع الجنوب. ووجدنا هناك الأفران التى كانوا يخبزون بها خبزهم، والجرار الكبيرة التى كانوا يصنعون بها جعتهم، والقصعات التى كانوا يشربون بها.

وتشهد المعابد التى أعيد بناؤها بالحجر عند إعادة احتلال القلاع فى عهد الدولة الحديثة (١٥٨٠ – ١٢٠٠ ق.م) فى سمنة غرب، وفى كومه وبوهن، بأن الدين لم يفقد حقوقه، وأنه إلى جوار الفرق العسكرية التى يجند أفرادها محليًا، كما يثبت ذلك رسائل سمنة، كان يعيش كهنة، وكتبة، وفنانون، وصناع، وهؤلاء هم الذين كانوا يتبادلون الرسائل التى عثر على نسخ منها فى طيبة بالقرب من الرمسيوم، وهم أيضًا الذين شكلوا وصوروا الأقنعة الجنازية المدهشة التى اكتشفت فى جبانة مرجيسة.

وعلى ذلك فإن نتائج استكشاف القلاع النوبية كانت باهرة، ومع ذلك فإنها حقيقة بأن لا تنسينا دمار المبانى نفسها التى غمرتها مياه البحيرة الجديدة. حقًا لقد أمكن فك أجزاء المعابد الحجرية ونقلها إلى الخرطوم، ولكن المبانى الشامخة التى كانت تشرف بكامل جبروتها على بقعة بطن الحجر بما فيها من جمال وحشى رائع قد اختفت إلى الأبد باختفاء هذه البقعة.

على بعد ٦٠٠ متر من القلعة العسكرية المنيعة فى مرجيسة، والتى تشرف على شلالات الجندل الثانى، اكتشف الأثريون فى حفرة (مياليه) مستودعا للنصوص والدمى التعويذية كان المدافعون عن القلعة ينقشون على أوان فخارية عبارات مؤذية تتحيا القضاء على سطوة العدو، ثم يكسرون الأوانى ويدفنونها فى الأرض. وقد عثر أيضًا فى الحفرة على الكثير من الدمى بأشكال آدمية ومغطاة بنصوص تعويذية.



(الصورة : اندريه فيلا – البعثة الأثرية الفرنسية السودانية)

الصورة : ج. لوكلان، باريس



زينت أعمدة قاعة المعبد الذى شيده امينوفيس الثالث (١٤٠٢ – ١٣٦٤ ق.م) فى صولب بالنوبة السودانية. على أجزائها السفلى بزهاء مائة صورة لأسرى من آسيا وأفريقيا. وقد دون اسم كل شعب أجنبى داخل إطار يعلوه تمثال نصفى لشخص قيد ذراعاه وراء ظهره. وهذا الشخص (الظاهر فى الصورة) أفريقى (يعرف بوجهه الأمرد، والحلقة المدلاة من أذنه، وغطاء رأسه) يصحبه اسم «ترز». ولم تكن هذه الشعوب خاضعة حتما لسلطان فرعون إثر انتصاراته عليها. فهذه الصور المرسومة على قاعدة العمد، والتى تعبر عن الخضوع انما كانت ضرورية لحفظ توازن العالم كما يدركه فرعون. والأحرى بنا، بدلا من أن نقول عنهم إنهم شعوب خاضعة، أن نقول إنهم «شعوب ممثلة بدمى»



إلى اليمين : بوابة تؤدى إلى فناء داخلى لمنزل فى جزيرة أرجو بالنوبة العليا (السودان) . تقضى التقاليد بأن تكون زخرفة البيت جزءاً لايتجزأ من فن العمارة ، فيا عدا الألواح الثلاثة الموضوعة فى الجزء الأعلى من المبنى ، والمصباح الذى يوجد فى وسط العقد . فى الصفحة المقابلة : نوبى يستعمل الشادوف وهو أداة قديمة لرى الأراضى الزراعية الصغيرة بجانب النهر.

تصوير : جورج جرستر - راهو - باريس

الأرض المباركة ..

بقلم : روبرت أ . فرنيا

كلما اجتمع شمل النوبيين ، تجاذبوا أطراف الحديث عن ماضى النوبة القديمة تلك الأرض المباركة التى امتدت من أسوان عبر الحدود المصرية إلى دنقلة بالسودان ، ولكنها الآن مغمورة بالمياه ، ويتساءلون : هل يحين اليوم الذى يعودون فيه إلى هذه الأرض المباركة ويستقرون على ضفاف بحيرة ناصر؟ ترى : ما هذه الأرض المباركة التى يذكرونها بمثل هذا الحنين ، ومن هم القوم الذين عاشوا فى هذه الديار؟

لقد بذل علماء الاجتماع ، المصريون والأمريكيون ، جهدهم خلال البحث الاثنوغرافى الذى قاموا به من ١٩٦١ إلى ١٩٦٤ ، لكى يقدموا لنا وصفاً شاملاً لمجتمع النوبة القديمة وثقافتها ، قبل أن يختفى وجهها إلى الأبد .

وقد دل البحث على أنه لا يوجد من الناحية الثقافية شعب نوبى واحد . ذلك أن النوبيين عاشوا فى بيئات شديدة التنوع والاختلاف فأحدثت فيهم آثارًا اجتماعية شديدة التنوع والاختلاف كذلك . ولم تبرز القومية النوبية التى ينضوى تحت لوائها الآن كل هذه الشعوب المختلفة إلا بعد أن جمعت المحنة بينهم حين اختفت قراهم تحت الماء ، وفقدوا مواطنهم .

وقد أدى خزان أسوان الذى أقيم فى ١٩٠٢ لأول مرة ، ثم عُلِّى فى ١٩١٣ و ١٩٣٣ إلى غمر جميع القرى فى بلاد النوبة المصرية الممتدة على طول النيل وعلى كلا جانبى الوادى . وقد غمر الماء كل القرى الواقعة فى الشمال ، ونقلت المساكن إلى أماكن صخرية عالية ، أما فى الجنوب فلم يفقد الأهالى سوى جزء من أراضيهم الزراعية . وهذا هو السبب فى أننا لم نجد فى الفترة التى

روبرت أ . فرنيا : من الولايات المتحدة . أستاذ الأنثروبولوجيا ودراسات الشرق الأوسط بجامعة تكساس ، أوستن . تولى من ١٩٦١ إلى ١٩٦٤ الإشراف على المسح الانثروبولوجى للنوبة ، وهو مشروع مولته مؤسسة فورد وتم تنفيذه بواسطة مركز البحوث الاجتماعية ، الجامعة الأمريكية بالقاهرة . مؤلف كتاب « النوبيون فى مصر شعب مسالم » ، مطبعة جامعة تكساس ، ١٩٧٣ ، وتولى جورج جرستر اعداد الصور فيه .

أجرينا فيها البحث أحدًا من الذكور في بعض القرى التي بحثت في الاقليم الشمالي في حين أننا وجدنا في السودان والاقاليم الجنوبية ٥٠٪ من السكان الذكور. ولذلك كانت معدلات الهجرة من النوبة إلى المدن عالية في جميع أنحاء النوبة ، ولكنها اختلفت تبعًا لمساحة الأرض المزروعة في مناطق معينة.

ولم تكن اللغة عاملاً من عوامل الوحدة في الأزمان القديمة ، إذ كان الناس يتكلمون ثلاث لغات مختلفة يتخاطبون بها فيما بينهم وهي : الكنوزية ، والعربية ، والمهاسية. على أن اللغة الكنوزية ـ وهي لغة أهل الشمال. كانت قريبة الشبه باللغة الدنقلية التي يتكلمها الناس في شمال السودان ، وبذلك تسنى لكلا الفريقين أن يتخاطب مع الآخر. وعلى ذلك كانت هناك لغتان نوبيتان حيتان هما : الكنوزية ـ الدنقلية ، والمهاسية. وكانت العربية هي اللغة الوحيدة التي يتكلمها أهل القرى في المنطقة الوسطى من النوبة المصرية بالقرب من وادي العرب.

وبعد فتح المدارس الحكومية في الأربعينات ببلاد النوبة تقرر تعليم العربية لكل الأطفال في النوبة. وعندما قمنا بدراستنا وجدنا أغلبية الرجال (والنساء) الذين يتكلمون الكنوزية والمهاسية ، يتكلمون العربية بالإضافة إلى لغتهم النوبية القومية ، وهذا يصدق على كل الأطفال تقريبًا. وعلاوة على ذلك كان بعض الأفراد من النوبيين يتكلمون الإنجليزية ، والفرنسية ، والألمانية ، والإيطالية ، تبعًا للبلاد التي هاجروا إليها وعملوا فيها.

وقبل غمر البلاد بالماء ، وعملية إعادة التوطين ، كان السواد الأعظم من النوبيين يفضلون الهجرة إلى القاهرة بغية العمل ، على الهجرة إلى أي اقليم نوبي آخر. والواقع أننا قابلنا بعض النوبيين الذين عاشوا في أوربا والولايات المتحدة ، دون أن تطأ أقدامهم أي إقليم نوبي خلاف القرية التي نشأوا فيها. وكان النوبيون الذين عملوا في السفارات المصرية بالخارج أو في منازل الدبلوماسيين الأجانب. يعودون إلى بلادهم وقد عرفوا الشيء الكثير عن أنحاء العالم المختلفة ، سواء فيما يتعلق بالعادات أو الجغرافية ، أو السياسة أو أساليب الحياة ، وكانوا يتناقلون هذه المعلومات في محادثاتهم وحكاياتهم التي انتقلت من قرية إلى قرية بأسرع مما انتقل الناس أنفسهم. وهكذا كان النوبيون يتصفون بسعة الأفق وضيقه في وقت معًا ، فأما سعة الأفق فلأنهم كان يعرفون الكثير عن مصر وأوربا مما شاهدوه بأنفسهم أو سمعوه من أصدقائهم وأقربائهم. وأما ضيق الأفق فلأنهم لم يعرفوا سوى النزر اليسير عن بلاد النوبة كلها.

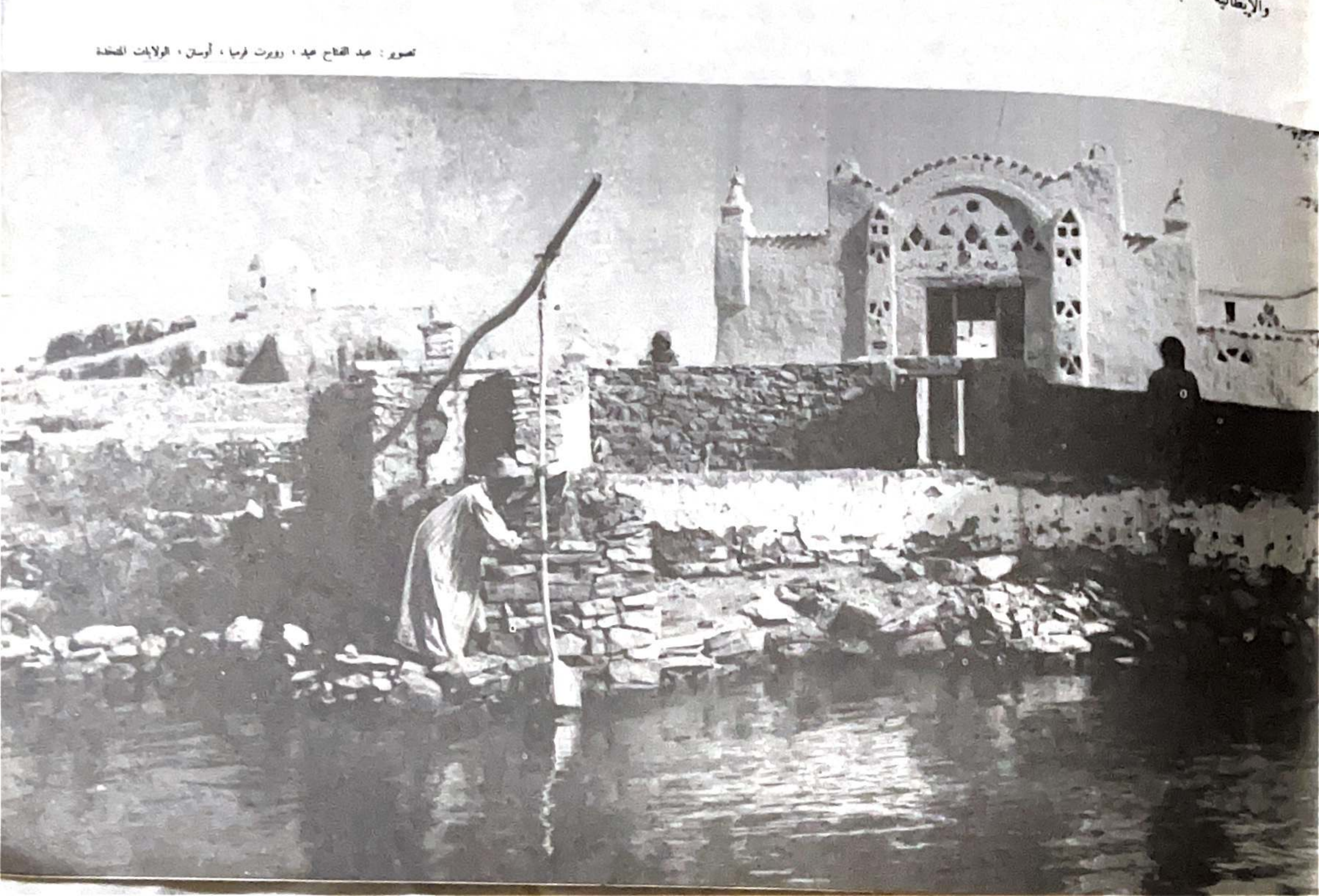
وقد اشتهر النوبيون في مصر على مدى التاريخ بالخدمة في المنازل. ولكن في الوقت الذي قمنا فيه بدراستنا وجدنا أن بعض النوبيين المهاجرين إلى المدن ، قد أخذوا يقتحمون أبواب المهن الفنية والأعمال الصناعية والحرف اليدوية. والواقع أنهم مارسوا من الأعمال في مختلف قطاعات الاقتصاد الحضري ما مارسه غيرهم من المصريين.

وكانت الزراعة في بلاد النوبة القديمة هي الوسيلة الرئيسية للمعيشة ، على الرغم من عدم سقوط الأمطار. وكانوا يستخدمون ماء النيل في الري بطرق حديثة أحيانًا ، وقديمة أحيانًا ، منها الشادوف ، وهو دلو من الخشب مزود بثقل يسمح له أن يرفع من النهر كمية من الماء تقدر بنحو لتر وهي تكفي لري قطعة من التربة التي حفرت من الأرض عند بناء خزان أسوان لأول مرة ، ثم أهيلت على الرمال والصخور. وكان الشادوف الشائع الاستعمال في شمال النوبة يستخدم أيام الفراعنة ، ويبلغ عمره مالا يقل عن ٣٠٠٠ سنة ! ولكنهم استخدموا في المناطق الجنوبية مثل البلانة وذكا مضخات الديزل الحديثة التي تروى مساحاتٍ كبيرةً من الأرض ، وأحواضًا من التربة الطفلية أقل خصوبة من الأراضي الواقعة على ضفاف النهر ، ولكنها ـ على كل حال ـ عوضتهم عن الأرض التي تغمرها مياه الفيضانات السنوية المبكرة.

وإلى أقصى الجنوب كانوا يستخدمون دولابًا (ساقية) به سلسلة من الدلاء لرفع الماء ، وبخاصة في ادندان ، والسودان. ويدار هذا الدولاب بقوة الماشية ، وغالبًا ما كان مملوكًا بطريقة تعاونية ، ويستطيع أن يروى فدانًا أو أكثر من الأرض. وقد أدخلت هذه الدواليب المائية في العصر الروماني ، وأدت إلى زيادة عدد سكان النوبة بفضل زراعة أراضٍ خصبة جديدة في أماكن مرتفعة على امتداد النهر.

وكان كل ما يزرع في بلاد النوبة القديمة يستهلك أو يستخدم محليًا إلى آخر شريحة من ألياف النخيل. ◀

تصوير : عبد الفتاح عيد ، روبرت فرنيا ، أوستن ، الولايات المتحدة





ركس كيتنج ، باريس



تصوير : شوزفيل ، متحف اللوفر ، باريس

تصوير مركز وثائق مصر القديمة ، القاهرة

تصوير : ب . أ. انتويرب ، المتحف الوطنى ، وارسو

وكانوا يأكلون الخضراوات والحبوب محليًا . وكذلك تمور التى تنمو فى الجنوب . والغريب أن المحصول التجارى الوحيد الذى كانوا يصدرونه من الاقليم هو الحيوانات . وعلى الرغم من ندرة المراعى والعلف فى الصحراء التى تكتنف الوادى الضيق ، كانت الأرض المُراحة (التى تترك بغير زرع موسمًا كاملاً) مصدرًا هامًا لغذاء الأغنام والماشية ، والماعز . يضاف إلى ذلك نمو الغذاء الحيوانى بسرعة إبان الصيف عند فتح الخزان ، فى الأرض التى يغمرها الماء بقية العام . وكانوا ينقلون الحيوانات المصدرة على سفن البريد السودانية إلى أسواق أسوان أو وادى حلفا ، أو على الفلائك (جمع فلوكة) ذات الشراع المثلث الشكل .

وعلى الرغم من الطرق الذكية التى استخدموا بها الأرض المتاحة لهم ، فانها لم توفر لهم سوى الكفاف من العيش على مدى التاريخ . وكان الطعام أحيانًا شحيحًا فى بعض أنحاء النوبة . ولذلك كان المقيمون فيها يعتمدون على الأموال التى يرسلها أبناؤهم وأزواجهم العاملون فى المدن . ومن ناحية أخرى كان المسكن أوسع مما يحصلون عليه فى القاهرة أو غيرها من القرى المصرية ، فكانت جدران المنزل المستطيلة الشكل تضم - مثلاً - فناءين وحجرًا للضيوف ، ومطبخًا صيفيًا ، ومطبخًا شتويًا ، بالإضافة إلى الحجرات المخصصة للأسرة . وكانوا يبنون حظائر للحيوانات خارج المنزل وبالقرب منه .

بيد أن أصحاب هذه المساكن قلما كانوا يشغلونها . وقد ذكر لنا معظم المقيمين بالمنازل التى زرناها أسماء العديد من الأشخاص - ومعظمهم متزوج وله أسرة - ممن يحتفظون بحجرة أو مخزن فى منزلهم النوبى ، دون أن يقيموا فيه . وهكذا كانت النوبة القديمة أرضًا تضم منازل خالية جزئيًا تهيئ فى كل الأوقات محلاً لإقامة الأقارب الزائرين وقت الزواج أو الميلاد أو المرض أو البطالة أو الأعياد . ويقدر عدد سكان النوبة بضعف العدد الحالى الذى يعيش فيها وهو ٥٠,٠٠٠ نسمة . ذلك أن النوبة كانت مأوى لسكانها الغائبين الذين يعدون ملاكًا لجزء من الأرض المباركة .

وكانت عمارة المنازل فى النوبة القديمة محلاً لإعجاب الزائرين ، وفخر الساكنين ، وقد أعيد بناء هذه المساكن بعد التعلية الأخيرة لخزان أسوان فى ١٩٣٣ وروعى فيها الجمع بين عناصر من الطراز الفرعونى والطراز الإسلامى على نحو خاص امتازت به بلاد النوبة . وكانت بلاد هذه المساكن المخصصة والمزدانة بالزخارف ، والمطلية بالطين والنقش ، آية على ما تمتعت به البلاد فى القرن العشرين ، من أمن ورخاء .

وفى اقليم الكنوز الشمالى كانت سقوف الحجرات المخصصة للضيوف أو الزواج مبنية على هيئة قباب شبه اسطوانية من الطين المجفف أو الطوب ، وهى طريقة قديمة استخدموها بعد هدم مياه السد لأشجار النخيل التى أمدتهم فيما مضى بالروافد اللازمة لبناء سقوفهم . وهنا حيث لا نرى سوى الرمال والصخور فوق مستويات الماء العليا ، يحل الطلاء والجير محل بعض الألوان الطبيعية الزائلة . ولم يستطع أن يعيش فى هذه القرى سوى نفر قليل من القرويين ، لأن انعدام وسائل الإنتاج فى النوبة اضطرت أغلب الرجال وكثيرًا من النساء والأطفال إلى الإقامة فى المدن المصرية . وكانت الموالد التى يحتفل فيها بذكرى الأولياء ، هى الفرصة التى تجمع سنويًا العديد من المهاجرين مع أقاربهم فى القرى .

وكانت مختلف القرى المنظمة على أساس قبلى تتولى الاحتفال بموالد الأولياء المسلمين . والاحتفال عبارة عن تنظيم موكب لزيارة قبر الولى ، والتضرع إلى الله بالأدعية والابتهالات . ولكن الموالد كانت أيضًا فرصة لإقامة المهرجانات وحلقات الرقص ، والباعة الجائلين . وكان العديد من النوبيين يفدون بالقوارب من القرى المجاورة لينضموا إلى المهاجرين إلى المدن ، وكان هؤلاء يسهمون بأموالهم إلى جانب القرويين المقيمين ، فى الاحتفال بهذه المناسبات .

وعلى خلاف ذلك ، كان الحال فى الجزء الجنوبى من بلاد النوبة حيث لم يؤد سد أسوان القديم إلى نتائج خطيرة فى بعض الأقاليم مثل أبوسمبل ، وبلانة وأدندان ، فالنباتات ظلت وافرة النماء ، وحقول الدخن والمحاصيل الأخرى مخضرة فى الربيع ، بالإضافة إلى أشجار النخيل المنتشرة فى أعماق البلاد . وكانت هذه النباتات تروى بماء النيل وتضفى على الاقليم منظرًا طبيعيًا جميلاً . وكما كان الحال فى القرى السودانية النوبية (التى امتدت بلا انقطاع على طول النهر إلى وادى حلفا وما وراءه) لم يغير سد أسوان من نمط الحياة القديمة ، فظلت التربة الغرينية تزرع كل عام كما كانت تزرع منذ آلاف السنين . ولم يحتفل أهل الجنوب ، بالموالد كثيرًا كما فعل أهل الشمال . وقد ظل النشاط الزراعى فى الغالب مشتركًا ومشاعًا بين أهل الجنوب ، فكانت أشجار النخيل مملوكة لكثير من الورثة الشركاء فربطت بين أفراد الجماعة برباط اقتصادى وثيق بالإضافة إلى وشائج القربى والمصاهرة .

وكان الزواج فى الاقليم المتكلم بالمهاسية خاصة فرصة لاقامة المهرجانات وحفلات الرقص التى تستمر ثلاثة أيام بلياليها ، وتجمع شمل النساء والرجال القادمين من القرى



ترى هنا أربعة أمثلة فى عهود تاريخية مختلفة للهلال والقرن اللذين استخدمهما النوبيون فى زخرفة مبانيهم من قديم الزمن (١) على واجهة منزل حديث بالقرب من سيرا (٢) على تمثال برونزى لايزيس ، مع وجود قرص القمر بين قرنين (٣) على تاج لأحد الملوك فى القرن الرابع الميلادى ، مصنوع من الفضة والأحجار شبه الثمينة . وقد اكتشف التاج فى جهة بلانة بالنوبة المصرية ، وتحت الهلال رأس كبش ، وهو من الرسوم الفنية المميزة للنوبة (٤) فى صورة جدارية للمسيح وهو يحمى الإبرك ، اكتشفت فى كاتدرائية فرس (انظر أيضا ص ٢) والأبرك هو أسقف أو مطران المقاطعة ، وكان أهم مايميزه تاجه الشبيه بالخوذة ، يعلوه هلال مثبت على قضيب

الواقعة على امتداد المجرى الأعلى والأسفل من النهر. ولم تكن السقوف المسطحة فى منازل الجنوب بحاجة إلى الزخارف الأنيقة الشائعة فى منازل الشمال، بل كان النساء أنفسهن يرتدين ملابس «الجرجرة» الوقور وهى عبارة عن ثوب فضفاض من القماش الأسود الخفيف. وكانت الحقول الخضراء، والمراعى العامرة بالمواشى، والنساء والرجال العاملون فى زراعة الأرض يضفون لونا من الجمال الرائع الذى تمتعت به بلاد النوبة كلها فيما مضى. وكانت رقصات النساء المتسمة بالوقار، والألعاب الرياضية التى يقوم بها الرجال تضفى لونا من البهجة على هذه المهرجانات. وعلى الرغم من غياب المهاجرين، فإن هذا الأقليم المتكلم بالمهاسية فى بلاد النوبة المصرية والسودانية كان يموج بأوجه النشاط والمهرجانات التى أتاحت للأهالى قاطبة برنامجاً حافلاً من الأعمال على مدار العام.

وعندما قطعنا شوطاً بعيداً فى البحث، وجدنا أنه على الرغم من تجمع القرويين فى النوبة على ضفاف النهر فإن هناك كثيراً من أوجه الشبه بين أحوالهم وحياتهم الاقتصادية، وبين أحوال وحياة المجتمع فى الواحات الواقعة فى الصحراء الكبرى الغربية. ومن أوجه الشبه هذه الهجرةُ التى ظلت ردحاً طويلاً من الزمن وهى وسيلة العيش بالنسبة لكثير من هذه الواحات فى ليبيا والجزائر ومراكش. وواضح أن البعد والعزلة الاقليمية يحميان المجتمعات المحلية من كثير من التدخل الأجنبى، ويضطران الأهالى إلى الرحيل عندما تضيق بهم الموارد المحلية.

وقد ألفينا أنه كلما اضطر النوبيون إلى الرحيل عن الأرض، ازدادت هذه الأرض بركة عليهم: إذ تصبح أمانا لأسرهم، ومكانا لزواجهم، وموطنا حقيقيا بين أهليهم.

بيد أنهم كانوا يدركون أيضا مزايا المدن، ألا وهى توافر أسباب الرعاية الطبية، ووجود المدارس التى يتعلم فيها أبناؤهم، وفوق ذلك كله توافر فرص العمل. وكما هو الشأن فى أنحاء العالم الأخرى، كان بعضهم يؤثر الحياة فى الريف، وبعضهم يفضل الحياة فى المدن. ويلاحظ أن النوبيين اللذين أصبحوا أطباء أو قضاة، وأصبحوا جزءاً من الطبقة الوسطى فى المدن، لايرغبون كثيراً فى العودة إلى قراهم الأصلية. وكانت النوبة أيضا موطنا لعدة أقليات تجاوبت كل منها مع الفرص الاقتصادية المتاحة بطريقتها الخاصة. فالحلبيون ـ على سبيل المثال ـ كانوا من الباعة المتجولين الذين يبيعون للنساء والأطفال بعض الحلى واللعب فى مقابل جفنة من التمر فى موسم الحصاد. وكان الأعراب أيضا ـ كالعبارة مثلا ـ يزورون القرى، ويتزوجون أحيانا بعض النساء النوبيات، ويستقرون فى القرى. وكان الفلاحون «الصعايدة» من الوجه القبلى يعملون فى الأرض الواقعة فى الشمال لمدة شهرين فى أثناء فتح الخزان فى فصل الصيف، على أساس المشاركة فى المحصول مع النساء اللاتى كن يسهرن على أملاك الأسرة. وكان محصول الشمام الذى يزرعونه يباع فى سوق أسوان. وكان بعض الصعايدة يشتغل بصيد السمك فى مياه النيل أو يعمل فى المشروعات الزراعية بالأراضى التى تروى بضخ الماء. وكانت المصاهرة هى فى الغالب الوسيلة لاندماج الأعراب فى المجتمع النوبى أو تحول النوبيين المهاجرين إلى المدن، إلى مواطنين مصريين.

وقد أمكن الحفاظ على الوحدة الثقافية والاجتماعية للنوبة، كما يشهد بذلك بقاء اللغات النوبية. وتحققت هذه الوحدة بفضل العزلة النسبية للأقليم، واستفادة النوبيين من الفرص الاقتصادية التى اتيحت لهم فى المدن ويسرت أسباب الحياة لهم. ويتسم تاريخ النوبة بنمط دائم من التكيف الثقافى والحيوى. وكان انصهار الشعوب الأجنبية فى النوبة بطيئا ومطرداً بدلاً من أن يكون جذريا وعلايا. وعندما يتم التحول الاجتماعى بطريق الزواج والمصاهرة، لاتزول اللغات والتقاليد والمهارات والقدرات النوبية. ويبدو أن الهجرة من النوبة وإليها لم تقطع تماما استمرارية الحياة المحلية حتى السنوات العشر الأخيرة.

هذا ويؤلف النوبيون المصريون الذين أعيد توطينهم فى النوبة الجديدة جزءا من سكان أسوان ـ كوم أمبو، وعليهم أن يوطنوا أنفسهم على أساليب الحياة المصرية فى مجتمعاتهم. فالعربية هى لغة الأعمال والسياسة وهى وسيلة الرقى الشخصى والتقدم فى صراع الحياة المصرية الحديثة. ومن ثم وجب على كل إنسان أن يتعلمها. ولكن إذا كانت النوبة القديمة لم تعد سوى ذكرى من ذكريات الماضى، فإنها على جانب كبير من الأهمية. لأنها تربط بين النوبيين المصريين فى دورهم الجديد كجماعة قومية. وعلى ذلك فالأرض المباركة لاتزال بمكان عظيم من الأهمية كما كانت بالنسبة للمهاجرين فى الماضى الذين وجدوا أنفسهم فى أغلب الأحيان غير قادرين على العودة عاما بعد عام. وتتضافر جهود الكثيرين من النوبيين الآن على إقناع الحكومة المصرية بالبحث فى إمكان توطين النوبيين على ضفاف بحيرة ناصر. وقد بدأت بالفعل بعض الدراسات فى هذا السبيل. وربما قامت يوما ما قرى جديدة بالقرب من القرى القديمة التى تلاشت الآن.

الدائرة المرسومة على الجدار تعنى أن هذا المنزل سوف تغمره مياه السد العالى. ولذلك اضطر السكان إلى مغادرة مواطنهم ليحيوا حياة جديدة بعيدة عن «الأرض المباركة» فى النوبة.

تصوير: جنفور جوركشيم، برسهوست، كوبنهاجن

بقية المنشور ص ٣٤

أى يفرض الضرائب فى النوبة السفلى . ويظهر ضمن المتولين واحد من الشخصيات الكبيرة ، له بشرة قاتمة ، وعليه ثياب كتاب المصريين ، ولكنه يحمل بعض اللوازم الأجنبية ، وله وجه غير مصرى بالمرة ، ويسميه النص «حقا نفر» أى «كبير ميام» ، وميام هى المركز الإدارى للنوبة السفلى (عنيبة الآن) . ومن أهم مآثر حملة النوبة الاكتشاف الذى أجراه الأستاذ سيمبسون ، من بوسطن ، لمقبرة هذا الأمير النوبى المعروف جيدا منذ بدايات علم المصريات ، فأثبت بذلك أن حقا نفر كان شخصية تاريخية ، وليس مجرد صورة تقليدية فى «الايكونوجرافيا» (مجموعة الصور والرسومات والتماثيل : الأيقونات) المصرية .

واليوم ، وبفضل ألقاب هؤلاء الأمراء النوبيين ، نعلم أنهم تربوا فى بلاط مصر مع الأمراء المصريين ، ومارسوا ما يمارسه كبار الأعيان المصريين من أعمال ، ويعودون بعد ذلك إلى بلادهم فى النوبة ليحكموا مواطنيهم . ووجد فى النوبة أيضًا نائب ملك مصرى محاطًا بفريق من الموظفين المصريين . وتدلنا قوائم الاتاوات على أن صادرات النوبة إلى مصر تتضمن مواد أولية ، كالذهب ، والأحجار الكريمة ، والماشية ، والخشب الأفريقى ، والعبيد ، والسلع الغذائية الأفريقية . وتدل المواد والأشياء المصرية غير المذكورة فى النصوص الرسمية ، ولكنها موجودة فى مقابر النوبة السفلى ، على أن مصر كانت ترسل إلى النوبة على الأقل بعض الأشياء النافعة مقابل ما تستورده منها .

على ذلك يبدو أن النوبة السفلى كانت مستعمرة مزدهرة لصالح ملوك ورعايا البلدين . ويتغير هذا الوضع بالتدريج فى عهد الدولة الحديثة ، كما يدل على ذلك تناقص عدد المقابر والجبانات التى يمكن إرجاع تاريخها إلى النصف الثانى من حكم هذه الدولة . والواقع أنه حين شيد رمسيس الثانى فى القرن الثالث عشر المعابد الشهيرة فى النوبة السفلى : أبو سمبل ، واوادى ، وسيبوا ، والدر ، تناقص عدد السكان بسرعة .

ويمكن تأريخ عدد قليل جدًا من المقابر فى هذا العصر ، رغم أن الآثار الباقية تثبت أن هذه الفترة لم تكن فترة خواء تام . ذلك أن المعابد تتطلب لكى تؤدى مهمتها عددًا معينًا من الكهنة والخدم . لذلك لا يمكن استخلاص نتائج متعجلة من هذا الانعدام النسبى لوجود الآثار .

فضلا عن ذلك اكتشف فى الجنوب ، فى دنقلة ، خارج القطاع الذى أجرت فيه حملة النوبة حفرياتها ، مدن كبيرة من عصر الرعامسة ، مما يثبت أن المركز الاقتصادى للمستعمرة النوبية قد انتقل صوب الجنوب ، وأن النوبة لم تعد سوى منطقة مرور إلى المناطق الجنوبية الأكثر ثراء . وفيما بعد ، وعلى أثر تفكك الدولة المصرية ، آلت أحوال المستعمرة إلى الزوال ، وفى حوالى عام ١٠٠٠ ق.م لم يبق أى أثر للسيادة المصرية فى النوبة .

بقية المنشور ص ٤٧

وأعقب ذلك عقد معاهدة بينهم تعهد فيها البليميس بالمحافظة على السلام مائة عام على أن يسمح لهم بتقديم القرابين فى فيلة ، بل يسمح لهم باستعارة تمثال أيزيس المقدس بصفة دورية لاستلهام الحكمة والنبوءة منه .

على أنه قبل انتهاء مدة المعاهدة أرسل جستنيان قائد فرسيس حوالى ٥٣٦ م للقضاء على آخر معقل للوثنية فى الامبراطورية فأغلق معبد أيزيس وحظر على الكهنة ممارسة نشاطهم الدينى ، ونقلت التماثيل إلى القسطنطينية .

ولم يلبث الأسقف ثيودوروس أن حول القاعة المعمدة (المرتكزة على أعمدة) إلى كنيسة كرسها باسم القديس أسطفان ، واستقرت جالية مسيحية فى الجزيرة .

وخلال هذه المرحلة الجديدة فى تاريخ فيلة التى استمرت من القرن ١١ إلى ١٣ أصيبت الآثار بتلف شديد ، فانتزعت منها بعض الكتل الحجرية ، واستخدم بعضها فى بناء إحدى الكنائس القبطية ، واستخدم بعضها فى إنشاء أحد الشوارع .

ولحسن الحظ نجت النقوش الهيروغليفية من التشويه المقصود سواء فى معبد أيزيس أو غيره من المبانى التى كتب لها البقاء . وعلى الجدار الشمالى لرواق هدريان نص هيروغليفى أمام تمثال مندوليس يرجع تاريخه إلى ٢٤ أغسطس ، ٣٩٤ م كما يؤخذ من مذكرة مصاحبة له مكتوبة بالديموطيقية (الكتابة المصرية القديمة الدارجة) . وهذا النص هو أحدث نموذج مؤرخ من الكتابة الهيروغليفية عرف حتى الآن .

وكذلك نجت من أيدى المسيحيين محطمى الأوثان مئات النقوش الديموطيقية والاغريقية التى كتب بعضها الكهنة ، وبعضها الحجاج الذين وفدوا إلى فيلة بانتظام لعبادة أيزيس أو التوسل بها فى شفاء أمراضهم .

وهنا أيضًا حافظت فيلة على آخر نقش كتب بإحدى الطرق الثلاث التى كتبت بها اللغة المصرية القديمة ، ألا وهى الديموطيقية التى يرجع اشتقاتها فى النهاية إلى الكتابة الهيروغليفية . ويرجع تاريخ هذا النقش إلى ٢ ديسمبر ، ٤٥٢ م ، وهو من عمل كاهن اسمه واسمت ، قام بنقشه على جدار إحدى غرف أوزيريس بمعبد أيزيس . وهو يدل على أن معرفة اللغة القديمة لم تمت تمامًا طالما ظلت فيله تلبى احتياجات عباد أيزيس .

يضاف إلى ذلك أن فيلة حافظت على نص كان له أكبر الفضل فى استعادة هذه المعرفة بعد أن طواها النسيان أكثر من ألف عام . وكان هذا النص إغريقيًا على قاعدة مسلة تحمل نصًا هيروغليفيًا . ولم يكن النصان صورتين لوثيقة واحدة إحداهما بالاغريقية والأخرى بالمصرية ، ولكنهما أشارا إلى كيلوباطرة ٣ زوجة بطليموس ٧ ، افرجيت ٢ ، وكانت معرفة اسمها فى النص الهيروغليفى المكتوب على المسلة عند مقارنته باسم بطليموس على حجر رشيد هى نقطة البداية لحل رموز الكتابة الهيروغليفية .

المطبوعات التى صدرت عن النوبة

- **Nubia, Corridor to Africa**, by William Y. Adams. Allen Lane, London, 1977. 797 pp. (£19.50)
- **Nubian Rescue**, by Rex Keating. Robert Hale and Co., London, and Hawthorn Books, Inc., New York, 1975. 269 pp. (£3.80)
- **Africa in Antiquity. The Arts of Ancient Nubia and the Sudan.** The catalogue of an exhibition with the same title, organized by the Brooklyn Museum. 1978. Published in two volumes by the Division of Publishing and Marketing Services, The Brooklyn Museum, Eastern Parkway, Brooklyn, New York 11238.
- **The Salvage of the Abu Simbel Temples**, Concluding Report, December 1971. Vattenbyggnadsbyran (VBB) Consulting Engineers and Architects, Stockholm, Sweden. 1976.
- **Nubian Twilight**, by Rex Keating. Rupert Hart-Davis, London, 1962. 111 pp.
- **Kalabsha: The Preserving of the Temple**, by G.R.H. Wright. Gebr. Mann Verlag GmbH., Berlin, 1972.
- **Campagne Internationale de l'Unesco pour la Sauvegarde des Sites et Monuments de Nubie: Bibliographie.** A bibliography prepared by Louis Christophe (in French only). Unesco, 1977. 123 pp.
- **Nubian Treasure.** An Account of the Discoveries at Ballana and Qustul, by Walter B. Emery. Methuen Ltd., London, 1948. 72 pp. with 48 plates and 10 maps and plans.
- **The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia**, by Torgny Säve-Söderbergh. A lecture prepared for the Danish Academy of Sciences and Letters; distributed by Munksgaards Boghandel, Copenhagen. The Scandinavian Joint Expedition to Sudanese Nubia has published nine volumes of results under the General Editorship of Torgny Säve-Söderbergh: 1. **The Rock Drawings;** 2. **Preceramic Sites;** 3. **Neolithic and A-Group Sites;** 4. **C-Group, Pangrave and Kerma Sites;** 5. **Pharaonic New Kingdom Sites;** 6. **Late Nubian Cemeteries;** 7. **Late Nubian Sites, Churches and Settlements;** 8. **Textiles;** 9. **Human Remains.** Africana Publishing Corporation, 101 Fifth Avenue, New York, N.Y. 10003.

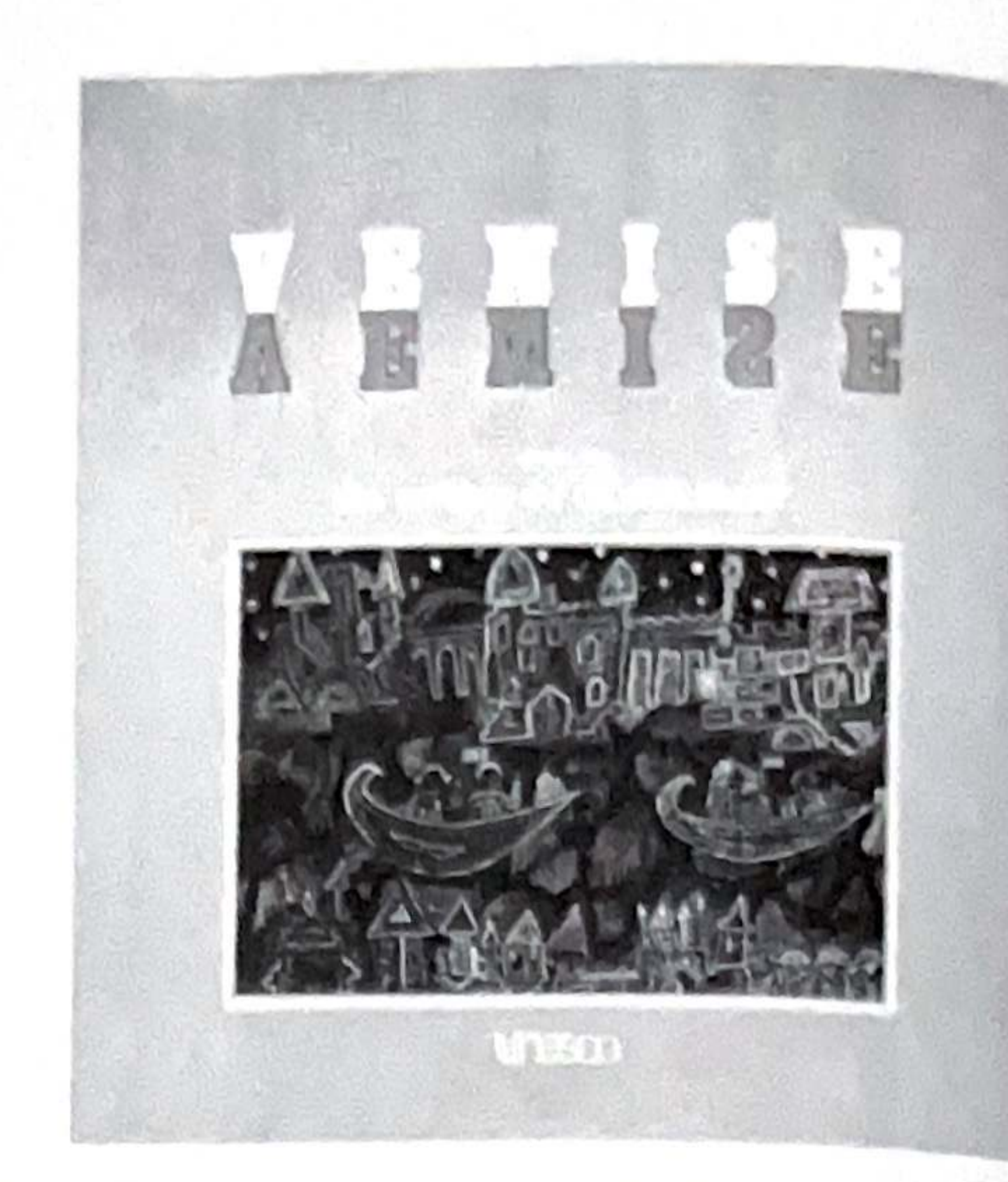
Unesco has produced or co-produced a number of 16 mm. films on aspects of the Nubian campaign. They include **Report on Philae, The World Saves Abu Simbel** and **Philae in the Saving.** A Unesco television programme on the campaign, **Victory in Nubia** (16 mm. 52 mins., colour) will shortly be available.

For information about the distribution of these films please apply to the Press and Audio-Visual Information Division, Unesco, 7 Place de Fontenoy, 75700 Paris.

ظهر حديثا

البندقية، البندقية

مصورة بريشة أطفال من العالم كله



عندما تسهم اليونسكو فى البندقية أو فى غيرها من بلاد العالم فى أعمال انقاذ وترميم التراث العالمى، فإنها تفعل ذلك بغية الحفاظ على تراث ثمين لكل من جيلنا والاجيال القادمة.

لذلك فإن هذا الكتاب الجميل المزود بقدر كبير من صور النقوش القديمة ورسوم الأطفال الملونة إنما هو خاص بالأطفال وآبائهم من أجل استثارة مداركهم صوب مشكلة المدن والآثار الثقافية المهددة. وقد تناول الفصل الأول «حياة مدينة» تاريخ هذه المدينة. أما الفصل الثانى «مدينة الأحلام» فإنه يصف مدينة البندقية. وأما الفصل الثالث «الاضمحلال» فإنه يطرح مشكلة انقاذ البندقية. ويختم الكتاب بفصل يتحدث عن «موت أو بعث» متسائلا عن مستقبل البندقية.

عرض خاص حتى ٣٠ ابريل ١٩٨٠
الثمن فى فرنسا ٢٥ فرنكا بدلا من ٣٠ فرنكا



فقد مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة، واحدًا من مؤسسيه، ومحررًا ممتازًا عمل بجد وإخلاص لتخرج مطبوعات اليونسكو باللغة العربية، فى أجمل شكل يمكن أن تخرج به على الناس.

فى يوم ٢٢ مارس ١٩٨٠ حملت الصحف المصرية نبأ نعى الأستاذ الجليل المرحوم عثمان نويه.

فكان لهذا النعى أعمق الصدى فى نفوس كل العاملين فى الثقافة، وكل الذين عملوا مع الفقيد أو تعاونوا معه.

لقد كان الأستاذ نويه يشغل منصب مدير تحرير مجلة اليونسكو لمدة عشرين عامًا. كما كان يتابع أعمال مجلات: رسالة اليونسكو، والمجلة الدولية للعلوم الاجتماعية، والعلم والمجتمع، وديوجين، والمكتبات، ومستقبل التربية طوال عمره.

وإلى جوار هذا، فقد كلفته وزارة الثقافة فى جمهورية مصر العربية بالعمل وكيلاً للوزارة ثم رئيسًا لهيئة الفنون، فترك فى كل مكان عمل فيه بصمات لا تنسى.

رحم الله الفقيد وألهم آله فيه الصبر والسلوان.

عبد المنعم الصاوى
رئيس تحرير الطبعة العربية

كيف تحصل على مطبوعات اليونسكو

جمهورية مصر العربية
مركز مطبوعات اليونسكو
١ - شارع طلعت حرب

تليفون: ٧٤٢٥٠٢
٧٤٠١٧٥

الأردن: المكتبة العامة لأمانة العاصمة
شارع الهاشمي مبنى العاصمة
عمان - ص. ب (١٣٢)

السودان: مكتبة البشير، صندوق بريد ١١١٨ الخرطوم
العراق: مكتبة ماكنزى.. بغداد
سوريا: مكتبة صايغ - دمشق

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى - هاتف: ٧٥٤٣١٤ - برقيا: شروق القاهرة - تلكس: SHROK UN ...



معبد يسير في الصحراء

قاربت الحملة الدولية لإنقاذ معابد النوبة التى كانت مهددة بالغرق على أثر بناء السد العالى بأسوان ، والتى دعت إليها اليونسكو منذ عشرين سنة تماما ، قاربت من نهايتها . وإنها لأعظم عملية إنقاذ أثرية عرفها العالم ، ونصر لم يسبق له مثيل للتعاون الثقافى الدولى . وتبين هذه الصورة الجوية جزءا من معبد « عمدا » بعد نقله . وقد رفع هذا الجزء من المعبد على جهاز يتدحرج على ثلاث سكك حديدية ، ونقل ببطء مسافة تبلغ ٢٦٠٠ متر ، وأقيم على موقع جديد فى مأمن من ارتفاع المياه . أما الآثار المطبوعة على الرمل فهى آثار السكك الحديدية . وأما الكتل الظاهرة بالقرب من معبد عمدا فإنها حجارة خاصة بمعبد آخر على وشك إعادة بنائه . وفى المجموع تم نقل زهاء عشرين معبدا وهيكلا وإعادة بنائها على مواقع جديدة أثناء حملة النوبة (انظر المقال بصفحة ٦)